صور من حضارة مصر القديمة

تأليف

محمود درويش

الكتاب: صور من حضارة مصر القديمة

الكاتب: محمود درويش

الطبعة: ٢٠٢٢

الطبعة الأولى ١٩٥٤

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم –
الجيزة - جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

APA

http://www. bookapa.com E-mail: info@bookapa.com

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر

درويش ، محمود
صور من حضارة مصر القديمة/ محمود درويش
– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.
١٠١ ص، ١٨*٢١ سم.
الترقيم الدولى: ١ – ٤٦٧ – ٩٩١ – ٩٧٧– ٩٧٨
أ – العنوان رقم الإيداع : ٥٦٦٠ / ٢٠٢٢

صور من حضارة مصر القديمة





الباب الأول

قيام الحضارة في وادي النيل

تقدمت حضارة الإنسان، ونمت بمرور الوقت الطويل عليها تبعاً للظروف الجغرافية التي عاش بينها، والمهارة التي أظهرها في عمله اليدوي، وإنتاجه الفكري، وقد توفر ذلك كله للمصريين القدماء، فأقاموا حضارة عظيمة، كانت أولى الحضارات في العالم.

وبدأت هذه الحضارة بسيطة، ثم تقدمت خطوة بعد أخرى، حتى بلغت غايتها في التقدم، ومكنتهم من تحقيق العيشة الراضية، المرضية لهم، واشتهروا في العصر الفرعوني بالقوة، والعظمة، والتفوق في كل علم وفن.

ولكن قبل الوصول إلى هذا العصر الزاهر، بزمن طويل جداً، أي منذ أكثر من عشرة آلاف عام، كانت الأحوال الجوية لبلادنا، غير ما هي عليه الآن، لأن الأمطار كانت تسقط عليها بكثرة.

وهذا المطر الغزير، جعل النبات ينمو في الصحاري، فأصبحت صالحة لمعيشة لبحيوان، وسكني الإنسان فوق هضابها المرتفعة.

حرفة الصيد:

كان الإنسان في ذلك الزمن البعيد، البعيد جداً، يصيد الحيوان ليعيش على لحومه، ويتغذى بالنبات، الذي يجده نامياً من نفسه في

الطبيعة.

واستعمل للصيد آلات خشنة، صنعها من حجر الصوّان، ثم حسنها، وهذبها، فأمتازت بالدقة والجمال.



الانسان البدائي يصيد الحيوانات ليعيش على لحومها

الكشف عن النار

تمكن الإنسان في ذلك الزمن، من الكشف عن النار، فكان إذا ضرب حجراً بحجر ليجعله مسننا، يتطاير منه الشرر الذي استفاد منه في إشعال النار. وأصبح يطهي الطعام بعد أن كان يأكله نيئاً، وكان اجتماع الناس حول النار للتدفئة والسمر، من دواعي الألفة بينهم، وظهور لغة التخاطب.

تنوع الحرف

لما عادت الأحوال الجوية، إلى حالتها العادية وقل سقوط الأمطار، جفت الصحراء وهجرتها أنواع الحيوان التي كانت تعيش بها، ولذا هبط المصريون القدماء إلى وادي النيل، للاشتغال فيه بالرعي والزراعة، فبدأوا بذلك عهداً جديداً الحضارة المصرية.

اهتدى الإنسان في العصر الحجري، إلى استئناس الحيوان، وجعله أليفاً، وكانت معظم الحيوانات التي استؤنست، كالأغنام والماعز والبقر، تعيش على الحشائش. وقد اشتغل المصريون برعيها للإكثار منها، والإفادة من لحومها، وألبانها وجلودها، في معاشهم ولباسهم، واستعملوا بعضها لحمل الأثقال مثل الحمار والثور.

وفي أثناء اشتغالهم بالرعي. عرفوا الزراعة، من ملاحظة طريقة نمو النباتات البرية، التي اختاروا من بينها، ما جربوا نفعه، فأكثروا من زراعتها لاستعمالها في غذائهم، وغذاء حيواناتهم المستأنسة، التي ساعدتهم في القيام بشئون الزراعة.

ومنذ العهد الذي اشتغلوا فيه بالرعي، بدأ تكوين القبائل، وأخذ المجتمع يظهر شيئاً فشيئاً. وكان الرعاة يتسلحون دائماً لرد الوحوش واللصوص عن ماشيتهم وأغنامهم، وقد تدرب رجال القبائل لذلك على الحرب، وبقيت هذه الروح الحربية قوية بين المصريين القدماء، مما جعلهم غاية في الشجاعة وعوَّدهم احتمال المشقة.

وكان الإكثار من تربية الحيوان، وسيلة لتوفير الغذاء لعدد كبير من

السكان، فساعد ذلك على تكوين الجماعات الكبيرة.

الزراعة

كان من الأسباب التي ساعدت على قيام الزراعة بمصر استئناس الحيوان، وخصب الأراضي، وتوفير مياه الري، واختراع الآلات اللازمة لها.

ويحكى أن الإله «أوزيرس» عَلَّم المصريين هذه الحرفة، كما عَلّمهم وضع الثور في المحراث، واختار لهم الشعير من بين النباتات البرية لزراعته في أراضيهم.

وكان للمصريين الأوائل الفضل في اختراع كثير من الآلات اللازمة للزراعة، كالفأس التي جعلوها شبيهة بالذراع واليد عند الجفر، والمحراث الذي صنع بهيئة فأس مكبرة، والمنجل الذي تقطع به سيقان النبات عند الحصاد، وهو بهيئة فك الحيوان وأسنانه.وكانت هذه الآلات تصنع من الحجر والخشب في أول الأمر، ثم استخدم النحاس في صناعتها بدلا من الأحجار.

نتائج الاشتغال بالزراعة

١- الشعور بالحاجة إلى التعاون للقيام بحفر القنوات وشق الترع اللازمة للري.

٢- قسمت السنة إلى ثلاثة فصول متساوية هي الفيضان، والبذور، والحصاد، وبقي هذا التقويم القديم في الأشهر القبطية، التي لا يزال يستعملها فلاح اليوم.

٣- استقر الفلاحون بالقرب من الحقول، فنشأت القرى والمدن، وتقدم بناء المساكن والمقابر.



أنواع مختلفة لأسلحة من حجر الصوّاني

٤- تحسنت صناعة الآلات الحجرية والنحاسية، وتعددت أنواعها.

٥- صنعت الآتية الفخارية لحفظ الحبوب والزيوت وغيرها.

٦- بنيت السفن لنقل المحصولات الزراعية وغيرها إلى جهات مختلفة.

٧- وجدت مع الموتى أنواع الطعام والشراب، وأدوات الزينة والأسلحة، مما يدل على الاعتقاد بوجود حياة ثانية بعد الدفن.

وقد نشأت هذه العقيدة من ملاحظة المصريين القدماء لنمو النبات وحياته بعد دفنه في التربة.

التجارة

كان الفلاح يقدم ما يزيد على حاجته من محصول أرضه، للحصول على المصنوعات المختلفة، كما كان الصانع يبادل في مصنعه، أو في السوق بعض إنتاجه، بما يحتاج إليه من أنواع المحصولات الزراعية، أو المصنوعات الأخرى.

ولذا نشأت التجارة منذ عهد قديم جداً، وساعد على تقدمها العوامل الآتية:

١- لمصر مناخ معتدل منشط يساعد على كثرة الإنتاج الزراعي والصناعي.

٢- تقدم بناء السفن وسهولة المواصلات عن طريق النيل.

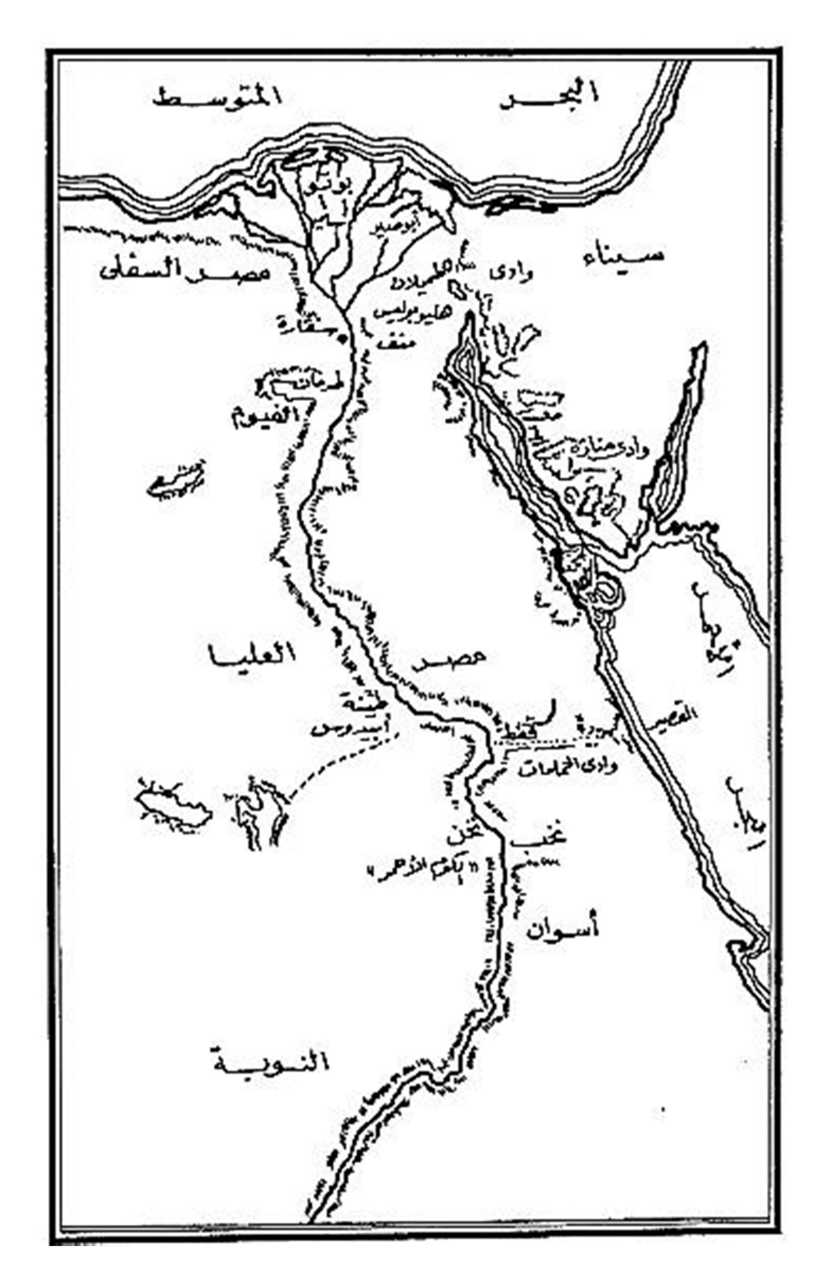
٣- وقوع مصر بين ثلاث قارات كبيرة، ووقوع البحر الأحمر في شرقها، والبحر المتوسط في شمالها.

نتائج الاشتغال بالتجارة

١- انتقلت مع التجارة عناصر الحضارة المصرية في جهات مختلفة، فأدى ذلك إلى انتشارها.

٢- زادت ثروة مصر عندما نقلت إليها محصولات البلاد الأخرى كالنوبة والسودان وبزنت (الصومال) وبعض جزر البحر المتوسط.

٣- اشتغل أهل الدلتا بالتجارة الخارجية، بسبب موقعها على البحر المتوسط فأدى ذلك إلى رقيها، وجعلها تسبق الصعيد في الحضارة.



خريطة مصر قديما

الباب الثاني

نمو الحضارة وقيام حكومة مصرية موحدة

قامت في الدلتا دولة موحدة، وكانت للصعيد دولة أخرى قوية. وقد ساعدت العوامل الجغرافية على تكوين هاتين الدولتين للأسباب الآتية:

١- وقوع البلاد متجاورة في الدلتا، وفي واد ضيق طويل بالصعيد.

٢- سهولة المواصلات عن طريق النيل.

٣- التعاون بين مختلف الجماعات لشق الترع، وحفر القنوات اللازمة للري.

٤- التبادل التجاري، واتصال المدن والقرى بعضها ببعض لتحقيق المصالح المشتركة.

مراحل الوحدة

١- كان لابد من وجود حكومة تسهر على الصالح العام، وتشرف على شق القنوات والترع، وإقامة الجسور، وتهتم بالأمن، وقد نشأت لذلك حكومة بالصعيد، وأخرى بالدلتا، وكانت كل منهما مستقلة عن الأخرى.

٢– كانت حكومة الصعيد أقوى من حكومة الدلتا، التي أضعفها تعرضها للغزو الأجنبيي من ناحية ليبيا في الغرب ومن ناحية البدو الأسيويين في الشرق. أما الصعيد فقد سلم من هذا الغزو لبعده، وحمايته بالحواجز الطبيعية، كالجنادل في جنوب أسوان، والصحراء، في الشرق وفي الغرب.

٣– كان أهل الصعيد محاربين أشداء لما أمتازوا به من الخشونة والقوة وقد اتجهت أنظارهم نحو الشمال، لوضع أيديهم على أراضي الدلتا الغنية، بسبب فقر الوادي الضيق الذي كانوا يعيشون فيه ، لذلك جاهد أهل الصعيد لتحقيق غرضهم، حتى تم لهم النصر، وخضع الجميع لحكومة واحدة قوية، على رأسها الملك نعومر «مينا»، حوالي سنة ٣٢٠٠ قبل الميلاد. لوح من حجر الأردواز بالمتحف المصري مُثّل بأعلاه الاحتفال بانتصار الملك نعرمر (مينا) على أهل الدلتا، وبأسفله منظر يمثله بهيئة ثور ينطح حصناً ويطأ عدواً يقدمه



الملك القائد الذي وحد القطرين

٤- تزوج مينا ملك مصر الموحدة من أميرة الوجه البحري فاكتسب بذلك سلطة شرعية لحكم البلاد التي فتحها بالقوة.

٥- وحُدت شارات الملك فضُم تاج الدلتا الأحمر إلى تاج الصعيد الأبيض.

٦- أصبح العمل لمجد الوطن، شعار العهد الجديد، وآمن الناس بفضل الوحدة، التي حققت لهم الأمن والعزة والكرامة، فكان لاتحاد الصعيد مع الدلتا صفة وطنية مجّدها جميع أبناء وادي النيل.

أهم أعمال حكومة مصر الموحدة ونمو الحضارة

١- طَرد الليبيين من الدلتا، وحمايتها من غزو البدو الأسيويين لها.

٢- النهوض بمشروعات الري، وحفظ الأمن، واستغلال المناجم والمحاجر، وترقية شئون الزراعة والصناعة والفن.

٣- تم اختراع الكتابة لتدوين الحوادث وضبط العمل الحكومي وتنظيمه، وعمل التعداد السنوي اللازم لإحصاء موارد الثروة. ونشأت لذلك طبقة متعلمة من الموظفين لإدارة شئون الدولة.

ومنذ اختراع الكتابة، واستعمالها في تدوين الحوادث، بدأ العصر التاريخي في مصر من سنة ٣٢٠٠ قبل الميلاد، أي بقيام الأسرة الأولى التي أسسها مينا.

٤- بعد التوحيد مباشرة، نشأت عاصمة جديدة، حول السور الأبيض، الذي بناه مينا ليكون حصناً، في مكان متوسط بين الوجهين القبلي

والبحري، عند رأس الدلتا، وسميت هذه العاصمة فيما بعد مدينة منف، وكانت لها أهمية عظيمة في الدولة القديمة، أي في عصر بناة الأهرام.

وكانت مدينة طينة (العرابة المدفونة قرب البلينا) لا تزال لملوك الأسرة الأولى، لنشأتهم فيخت وقد دفنوا بها.

٥- كان من الطبيعي بعد توحيد البلاد، وإشراف الحكومة على ثروتها ينهض الفن، وترقي الصناعة.

وفي هذا العهد حلت المصطبة المبنية من اللبن بأشكال هندسية مستطيلة، محل كومة الرمال، التي كانت تعلو حجرة الدفن في العصور السابقة.

الملك القائد في خدمة الشعب

كان النظام الحكومي الجديد، يجعل الفرد في خدمة الوطن وفرعون، الذي لم يكن ملكاً فحسب، بل إنه كان زعيماً شعبياً بحق، وكان معبراً عن إرادة المواطنين جميعاً. فهو نفسه الذي يقود الجند في ساحات القتال، ويحرز النصر لمصر، ويقضي على أعدائها، ويوفر للجميع العزة والكرامة، وقد أكتسبته شجاعته منزلة خاصة في النفوس جعلته في صف الآلهة.وكان بحكم مركزه كابن لكل إله، الكاهن الأكبر، والقاضي الأعظم، الذي يحكم بالعدل ويعمل لخير الشعب.

الدول الفرعونية

وقد تكونت ابتداء من هذا العصر الدولة القديمة ثمّ الوسطى والحديثة، وكانت عهود الإقطاع تقع بعد كل دولة منها، فتسوء أحوال البلاد لضعف الملوك وانتشار نفوذ الأمراء الذين كانوا يستأثرون بالثروة والسلطان، ولكن الروح القوية الكامنة في الشعب وقادة الجيش، كانت تضع الأمور في نصابها، وتعيد إلى الدولة احترامها.

الباب الثالث

بعض مظاهر الحضارة المصرية القديمة

عندما تمت الوحدة بين الشمال والجنوب، لدأت مصر عهداً جديداً من القوة، بزعامة الملوك الفراعنة، وتقدمت الحضارة فيها بفضل الاتحاد والنظام والعمل. وكان من مظاهر هذا التقدم، قيام حكومة منظمة، وسن القوانين، وتلاقي الآداب والعلوم والفنون، والنهوض بالزراعة والصناعة والتجارة،زالتفوق في الحرب، وتنظيم شئون العبادة. وقد احتفظت تلك الحضارة بالروح المصرية الصميمة زمنا طويلا، وانتشرت بين الشعوب الأخرى فساعدت على رقي تلك الشعوب، وكان للدين أثر كبير فيها. وقد تمثلت الحضارة المصرية فيما يأتي:

أولا_ نظام الحكم

كان النظام الحكومي الذي عرفته مصر في الماضي نتيجة الحاجة إلى تجمع المجهودات والقوى ومصادر الثروة كلها في يد الملك الزعيم للنهوض بالمشروعات العامة وتوفير أسباب الرخاء والأمن للجميع.وكان يساعد الملك في أداء هذه المهام طائفة كبيرة من الموظفين على رأسهم الوزير، وكان الأمراء يقومون بالحكم في الأقاليم، وقد تمتع رجال الدين بنفوذ كبير كما سنرى.

فرعون

كان فرعون على رأس الدولة، وكان مصدر السلطات الإدارية والقضائية والدينية، والقائد الأعلى للجيش، والكاهن الأكبر لكل إله، وواضع القوانين، والمشرف على الأمن، وكان يعد ابن الآلهة، وخليفتها على الأرض.

وهكذا كانت واجبات الملك كثيرة، وكان يجهد نفسه، في سبيل إسعاد شعبه، ولذا أحبه الجميع وأطاعوه، وجعلوه في منزلة الإله الذي يعمهم خيره، ويحيمهم وينشر العدالة بينهم، ويعاقب المفسدين في الأرض، ويقدم الهبات والعطايا للأحياء والموتى.

ويحكي عن أحد الملوك الفراعنة، أنه نصح ابنه المسمى «مريكارع» لتبصرته بمهام الملك فقال له «حافظ على حدود بلادك، وأشرف على حصونك، وتمرن على كل الحرف، وأفعل الحق ما دمت حياً على الأرض واس الحزين، وامسح دمع الباكي، ولا تظلمن أرملة، ولا تحرم رجلا من أملاك أبيه، ولا تلحق الضرر بالحكام، ولا تعاقب أحداً من غير ذنب، واهتم بالجيل الناشيء من الشبان حتى يحبك الجميع، واعلم أن العناية بالناس حسنة لأنهم رعية الله، وأن الإنسان سيحاسب على أعماله في الدار الآخرة».

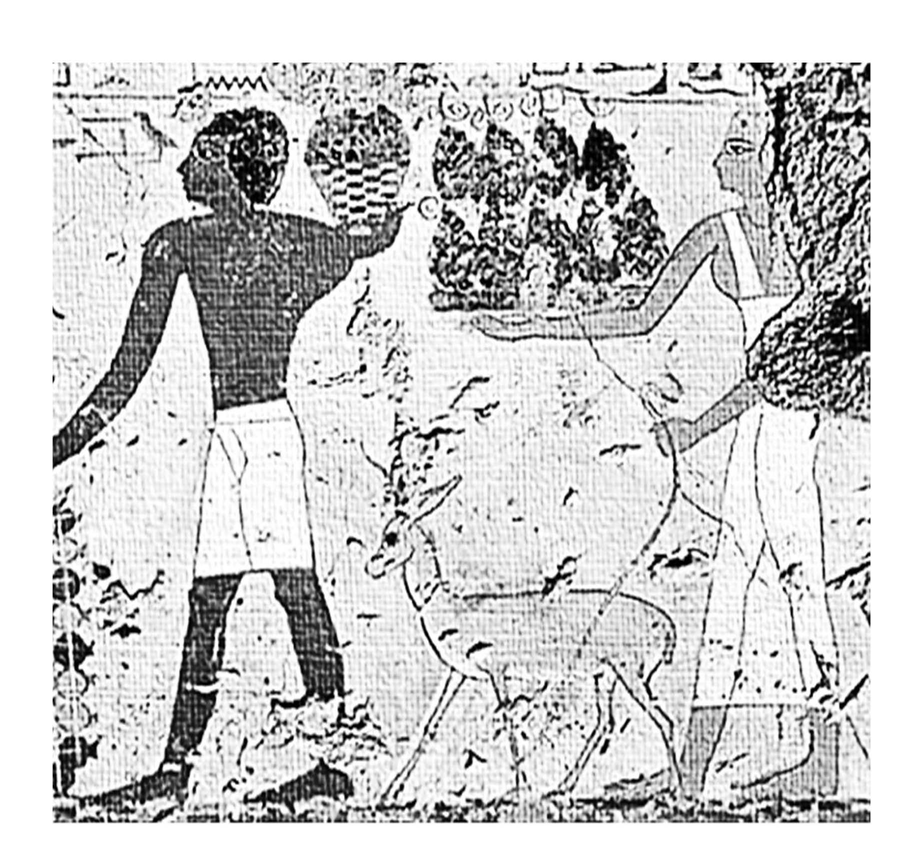
وقال ملك آخر اسمه أمنمحات الأول في القرن العشرين قبل الميلاد إنه أعطى الفقير، وعَلَّم اليتيم، ولم يجع أي إنسان في عهده، وعاش الناس آمنين بفضل ما قام به من الأعمال.

وعلى ذلك كان الملوك مصدر الخير للأمة، وما داموا أقوياء، وحريصين على القيام بأعباء الحكم على الوجه الأكمل، أما إذا تهاونوا وفرَّطوا في أداء الواجب، فإن الشعب المصري كان يثور لكرامته، فتهوى عروشهم وتأخذ العدالة الاجتماعية مجراها، بعد زوال حكم الغاشمين.

الوزراء

كان الفراعنة يستعينون في شئون الحكم بوزارتهم، وكانت الوزارة توكل في باديء الأمر إلى أحد أمراء البيت المالك، ثم أسندت بعد ذلك إلى الموظفين الأكفاء الماهرين.ولما اتسعت أعمال الدولة أصبح لمصر وزيران، أحدهما للصعيد، والآخر للدلتا، وكان يكتفي قبل ذلك بوزير واحد يصرّف الأمور على اختلافها قضائية وهندسية ودينية وغيرها.

وقد حفظ لنا بعض الوزراء على جدران قبورهم ما يمثل هذه المهام، فترى الوزير يستقبل وفود الأجانب الذين أتوا إلى مصر حاملين ما فرض عليهم من جزية كبيرة مؤلفة من خيرات بلادهم، أو جالبين الهدايا لفرعون طلباً لوده ومصادقته.



جزية البلاد الأجنبية الخاضعة لمصر يتسلمها الوزير "رخمي رع" في طيبة عاصمة الامبراطورية

وتراه في منظر آخر يعرض بين يديه القوانين والتعاليم التي يسير عليها هو وطائفة الموظفين الذين معه، لتحقيق العدالة في البلاد.

كما تراه يقوم بالإشراف على كل الأعمال العظيمة في الزراعة والصناعة والأبنية، وهو في ذلك كله يوجه العمال ويحثهم على الاجتهاد والدقة في أداء كل صغيرة وكبيرة.

ويقوم الوزير كذلك بإدارة مالية البلاد، والتحقق من جميع الضرائب

على حسب حالة النيل من ويادة أو نقص كما يشرف على توزيعها للنهوض بالشئون المختلفة الخاصة بالجيش وبناء السفن وحفر الترع وغيرها. ونفهم من ذلك كله أن الوزير كان مشرفاً على كل نواحي الإدارة والاقتصاد الوطني، وكان الموظفون والكهنة يرجعون إليه في مهام الأمور. كان من واجبه أن يقدم تقريراً يومياً لفرعون يفصِّل فيه الحالة العامة للبلاد، ليتلقى تعاليمه فينفذها بإخلاص وسرعة.

الأمراء

كان الأمراء يصرِّفون شئون الحكم في الأقاليم التي تألفت منها مصر، وهي ٢٢ إقليماً في الوجه القبلي، وعشرون في الوجه البحري، وكانوا يرجعون إلى فرعون والوزير في كل الأعمال التي يقومون بها لجمع الضرائب والتجنيد وعمل التعداد السنوي وتدوين ارتفاع النيل وحفظ الأمن وغيرها، وكان يعاونهم عدد كبير من الكهنة والموظفين لإدارة المخازن والمصانع والمزارع.

غير أن الأمراء كانوا يستبدون بالحكم كلما أحسوا بضعف فرعون، فتفسد الحياة المصرية وتنتشر الفوضى في كل مكان لما كان يحدث من التنازع والخلاف فيما بينهم، وعند ذلك يختل الأمن وتتعرض البلاد للغزو الأجنبي، وهذا ما يعرف بعهود الأقطاع، التي كانت شراً ووبالا على الجميع.

وقد تمتع الأمراء بطيب العيش، وانغمسوا في الترف والملذات.

وتراهم في رسوم قبورهم أمام موائد محملة بكثير من ألوان الطعام

والشراب، أو أنهم يُشعلون بالنزهة في النيل وصيد السمك وقنص الطيور وإقامة الولائم والاستمتاع فيها بالرقص والموسيقى.

الكهنة

تمتع الكهنة بنفوذ كبير لاعتقاد المصريين بأن مصيرهم في الحياة الآخرة متوقف على الصلوات والمشاعر الدينية التي تقام لهم.كانت إقامة هذه الصلوات والمشاعر، وتقدين القرابين في الأعياد والمواسم، وأحياناً في كل يوم، تتطلب نفقات كبيرة تذهب إلى جيوب الكهنة في النهاية، فيعظم دخلهم ويزداد نفوذهم تبعاً لذلك.

وتعددت المصادر التي ضاعفت من ثروة الكهنةن فكان منها إيراد الأراضي الموقوفة على المعابد، وهي معفاة من الضرائب، والأجر الذي ينالونه نظير القيام بالصلاة على الموتى، وغنائم الحرب التي كانت توزع على المعابد المختلفة.

وقد جمعوا الأرباح الطائلة من إيهام الناس بقدراتهم على السحر لشفاء المرضى، وبلوغ المعيم في الأخرة، وتجنب أخطارها، وفتح أبواب السماوات لهم.

وحدث أن إخناتون، الملك الفيلسوف، الذي عبد الإله الواحد الحق، لك ترضه وسائل الكهنة، فكانوا حرباً عليه، واتهموه بالكفر، وعدُّوا ديانته بدعة يجب القضاء عليها، وقد عاد إليهم نفوذهم مرة أخر بعد موته واعتلاء «توت عنخ آمون» عرش البلاد.

وقد نُظمت طوائف الكهنة، وأصبح عددهم كبيراً على مر الزمن،

وتمكن كبيرهم من اعتلاء العرش، فأسس (حريحور) الأسرة الحادية والعشرين.

الموظفون

كثيراً ما نقرأ على جدران مقابر الموظفين من رجال الإدارة والجيش، والشئون المالية المختلفة، سجلا بالأعمال التي قاموا بها في تسيير دقة الحكم.فنشاهد بعضهم وقد أسرلهم فرعون في بعثة إلى سورية أو فلسطين أو السودان لإنجاز مهام سياسية، أو لإحضار الأخشاب اللازمة لبناء المعابد والقصور.

وترى موظفاً آخر يقوم بالعمل في مخازن الغلال والمحصولات المختلفة. وقد امتاز الجميع بالطاعة للرؤساء، وأداء الواجب بعناية وسرعة، ونشاط ونزاهة، وكانت هذه الصفات ترفع قدر الموظف، فينال نصيبه الأوفى من المكافأة والرقيّ، ويتسع المجال أمامه لبلوغ أرفع وظائف الدولة مهما كان نسبه. ولم ينس هؤلاء الموظفون أن يصوِّروا على جدران قبورهم، نصيبهم من الحياة الدنيا ومتعها، وما كان لهم من ألقاب كثيرة، ومكانة سامية.

ثانيا_ المباني

تعد المباني التي أقامها قدماء المصريين من أهم مظاهر الحضارة والتقدم، لما تدل عليه من المهارة والذوق السليم، وكان منها المقابر والمعابد والمساكن والحصون.

المقابر

اهتم المصريون ببناء المقابر، وجعلوها متينة لتبقى بها الأجسام سليمة بعد الدفن. ويتألف كل قبر من مكان للدفن تحت الأرض، وبناء من فوقه لاجتماع أهل الميت، وتقديم القرابين، وإقامة الصلوات الدينية، وقد مُثلت على جدرانها مناظر جميلة للمآكل والمشارب ومتع الحياة.

أما مقابر الملوك فأتخذت شكل الأهرام في الدولتين القديمة والوسطى، وكانت في عد الدولة الحديثة تحفر تحت الأرض إلى عمق كبير، ولكل مقبرة ملكيةمعبد خاص ملحق بها.

وكان الجميع يهتمون ببقاء أجسامهم والعناية بتحنيطها، وسلامة مكان الدفن الذي توضع به، اعتقاداً منهم بعودة الروح إليها.

خلود الروح

آمن المصريون القدماء بأن الروح لا تفني، فهي خالدة، وإذا كان الموت يفصل بينها وبين الجسم، فإنها تلحق به مرة أخرى، وقد تصحد الروح إلى السماء، ولكنها تعود إلى الأرض لينعم صاحبها بالحياة، ومما يساعد على عودتها تلازة الصلوات والتعاويذ الدينية، وتقديم القرابين المختلفة. وكان المفروض أنها تحل في التماثيل أيضاً.



أوزيرس يحمل شارات الملك ومعه ايزيس زوجته وأخته

قصة أوزيرس وإيزيس:

اعتقد المصريون أن أوزيرس كان ملكا يعيش بين الأحياء، وكان يحب الخير لشعبه فعلمهم زراعة الشعير، وأحب الحق والعدالة، ولكن أخاه الشرير «ست» حقد عليه، فطوّعت له مفسه قتل أخيه فقتله.وراحت إيزيس زوجته المخلثة، تبحث عنه في كل مكان، وهي في غاية الحزن لفقده، وأخيراً عثرت عليه جثة هامدة، في بلد بعيد على شاطيء لبنان. وهناك بكته ثم حنطت جسده، لتحفظه من الفساد، واقتربت منه وهو راقد، فحملت بابنها حور، الذي كبر بعد ذلك، وانتقم لأبيه من أعدائه،

وتم له النصر على عمه «ست» في موقعة حاسمة.

وفقد «حور» عينه في أثناء القتال، فاستردها له الإله «تحوت» رب الحكمة والكتابة، ثم عاد حور فقدمها قربانا لأبيه المتوفي.واحتكم حور إلى محكمة الآلهة، فقضت ببراءة والده أوزيرس، وقررت إعادته إلى عرشه، ولكنه جعل ملكا للموتى، وخلفه حور على عرش الأرض.

ونفهم من هذه القصة، أن المصري القديم كان يعتقد بالبعث بعد التحنيط والدفن، وأن وفاء الزوجة وبر الابن بوالده من الفضائل الشائعة بين المصريين.

حساب الموتى

كان المتوفى يطلب للحساب بعد الموت أمام محكمة برأسها أوزيريس فيقف ليبريء نفسه من الذنوب قائلا، إنه يحب الحق، ويكره الباطل، ولم يُفسد بين الخادم وسيده، ولم يسمح بمجاعة أحد، ولم يقتل أو يسرق، ولم يغش في الكيل أو الميزان، بل كان يطعم الجوعان، ويسقي العطشان، ويكسو العريان، ويقدم القرابين للآلهة. ولما كان المصري يخاف الدار الأخرة، والحساب أمام هذه المحكمة، فقد حاول أن يكون رحجلا فاضلا، منزها عن فعل السوء. وكان الكهنة يزيلون عنه مخاوفه بأساليبهم السحرية، ويضعون مع الموتى دفاعاً مكتوباً على ورق البردي، لتلاوته أثناء المحاكمة، وقد خلقوا لكل عقبة في الآخرة طريقة سحرية خاصة للتغلب عليها، وكانوا يجنون من وراء ذلك أرباحاً طائلة.

مراحل تطور المقابر

١- كانت المقابر في العصور الأولى حفراً تضم أجسام الموتى، وتوضع بها بعض الأسلحة وأدوات الزينة، والآنية الفخاريَّة، الملأي بالطعام والشراب.

٢- استُعمل اللبن (الطوب) بعد ذلك في بناء المقابر، فأخذت أشكالا هندسية مستطيلة تعرف بالمصاطب، وقد حلت المصطبة محل كومة الرمال التي كانت تعلو حجرة الدفن في العصور السابقة.

٣- عندما توفرت الآلات النحاسية، وتحسنت صناعتها، أمكن استعمالها في قطع الأحجار التي أقيمت منها غرفة دفن الملك زوسر في القبر الذي بنى له في (بيت خلاف) بالقرب من جرجا.

٤- زاد استعمال الأحجار في بناء المقابر، لتصبح متينة، وتبقى طول الدهر، فلا يعبث بها العابثون، وبنيت للملك زوسر مصطبة أخرى في سقارة كلها من الأحجار، ثم أقيمت فوقها خمس مصاطب، تصغر كل منها في المساحة عن سابقتها، وأصبح هذا القبر هرما مدرجا، وقد أقيم أمامه معبد جميل يحوطه سور ضخم.

وقد نحتت تحت الأرض غرف الدفن، وكسي بعضها بالجرانيت والبعض الآخر بالقيشاني الأزرق والأخضر.

٥- تحسن البناء عندما أقيم للملك سنفرو مؤسس الأسرة الرابعة هرم.



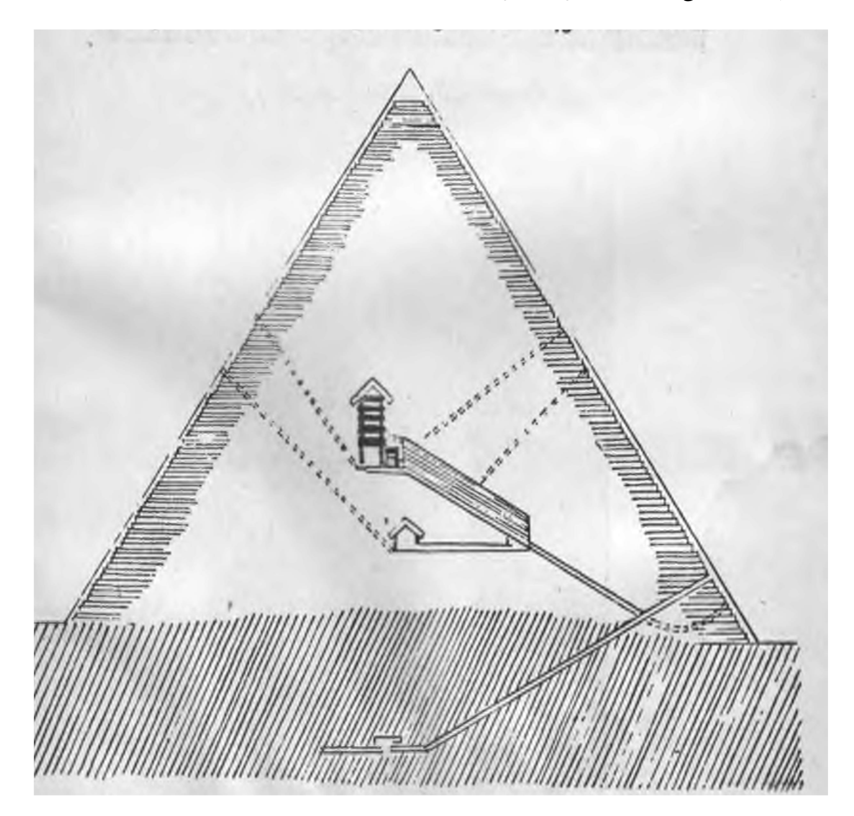
هرم زوسر المدرج بسقارة

مدرج في ميدوم، يتألف من ثلاث طبقات، وبنى لهذا الملك هرم آخر في دهشور، بالقرب من سقارة، قاعدته مربعة، وكل وجه من وجوهه الأربعة مثلث الشكل تماما، ثم كسى من الخارج بالأحجار الملساء، وبهذا بلغ الهرم شكله التام.

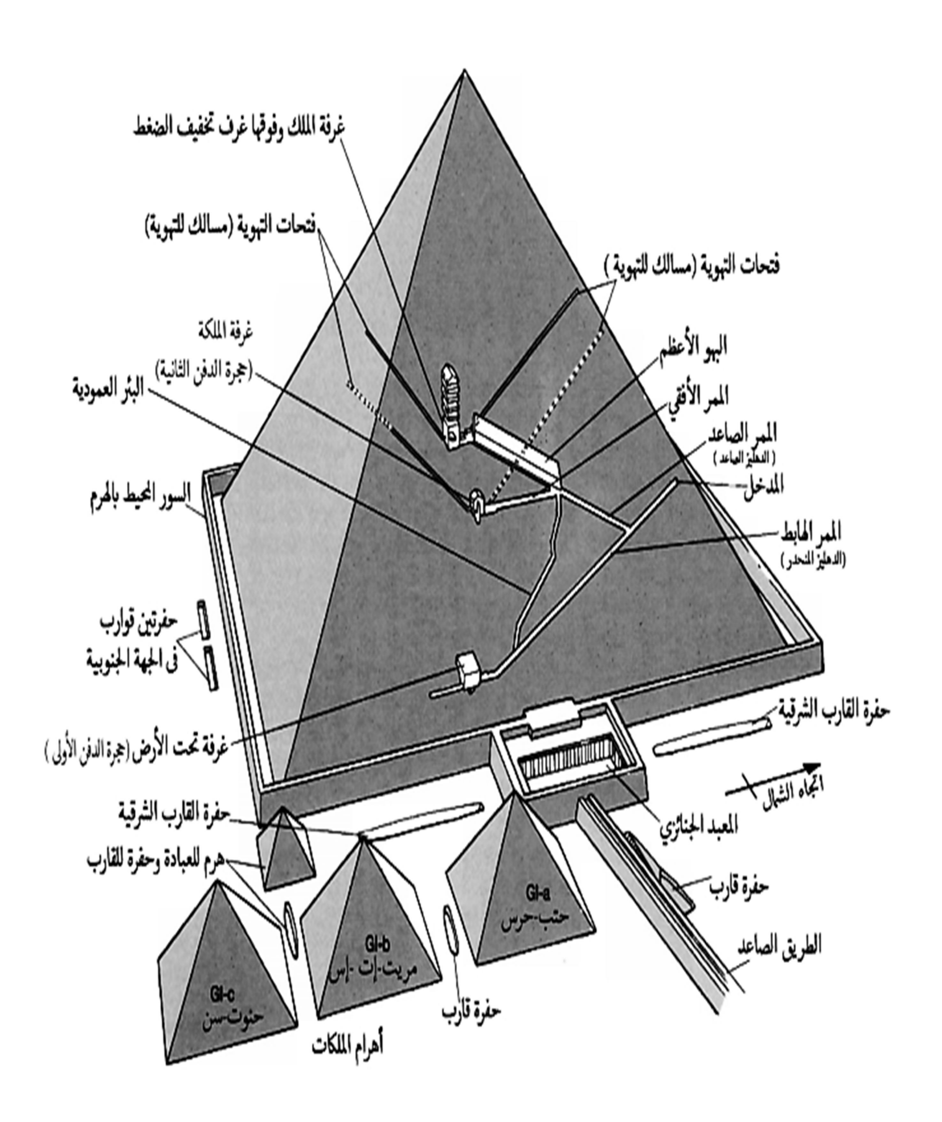
٦- لم تختلف بعد ذلك أهرام الجيزة عن هرم دهشور إلا في ضخامة البناء وروعته، وضبط الزوايا، ودقة قطع الأحجار.

وأعظمها شأنا هرم الجيزة الأكبر، الذي بني للملك خوفو، وتبلغ مساحة قاعدته المربعة ثلاثة عشر فدانا، وارتفاعه ١٤٦ مترا، وبداخله دهليز عجيب، نصعد عن طريقه إلى غرفة للدفن نجد فيها نابوتاً كبيراً، خلا منه جثمان الملك.

وكان لكل هرم معبدان في الجهة الشرقية، أحدهما يجاوره، والآخر في الوادي، ويصل بينهما طريق مرصوف بالأحجار.



الهرم الأكبر من الداخل ويرى به الدهليز الكبير المؤدي إلى غرفة الدفن ومن قولها خمس غرف أخرى لتخفيف الضغط عليها، وتوجد بأسفلها غرفة أخرى تسمى غرفة الملكة



رسم توضيحي للهرم الأكبر من الخارج والداخل

المعابد:

كان للملوك معابد خاصة، تقدم فيها القرانين من المآكل والمشارب وتقاوم بها الصلوات والأعياد لذكراهم.وكانت هناك معابد أخرى تعد بيوتاً للآلهة، وقد انتشرت هذه المعابد في البلاد لتعدد المعبودات، واشدة تدين المصريين القدماء. وساعد على انتشارها كثرة موارد الثروة المصرية ووفرة مواد البناء.ولكل معبد محراب خاص بالعبادة وحفظ تمثال الإلة، وبه غرف جانبية لأدوات الغسل والزينة، وفناء متسع. وترى على جدرانها نقوشاً بديعة، تمثل العبادة، وجلال الآلهة، والاحتفالات الدينية المختلفة، كما تصور انتصارات الملوك في حروبهم.

معابد الشمس:

أقيمت معابد الشمس في عهد الأسرة الخامسة، في «أبو صير» الواقعة بين الجيزة وسقارة. وكان لكل منها بهو متسع به مسلة مقامة فوق قاعدة هرمية الشكل، وترمز لعبادة الشمس. وتشاهد على جدران المعابد ما يمثل القارب الذي تقوم فيه الشمس بدورتها بين الشرق والغرب.

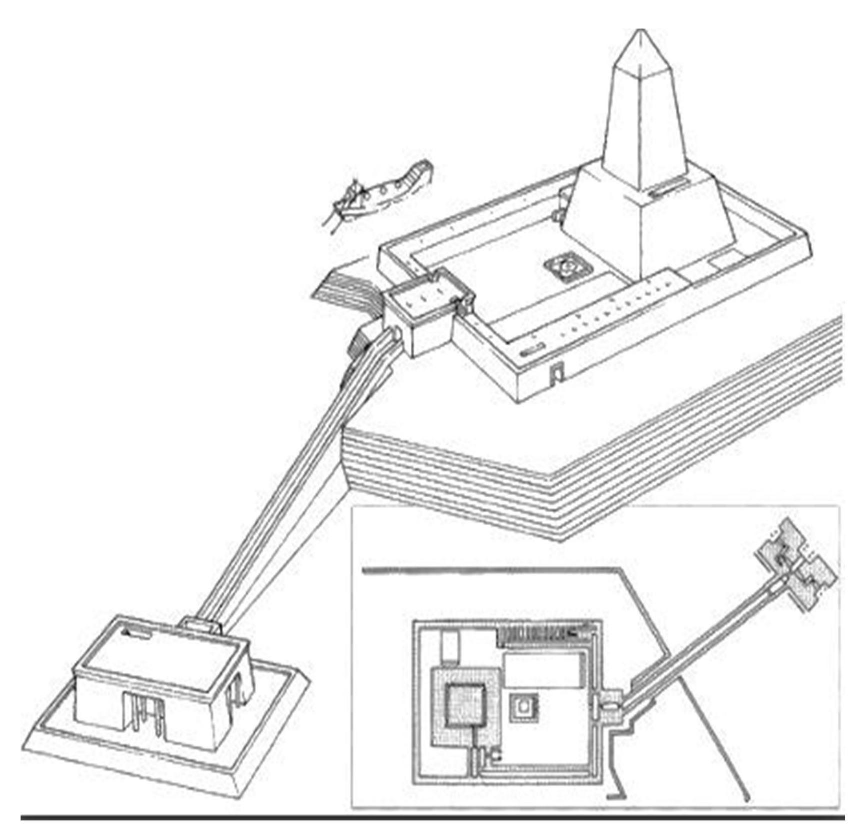
ونلاحظ أن القبر الهرمي الشكل، الذي بلغ حد الكمال في الأسرة الرابعة، كان هو نفسه رمزا لعبادة الشمس، وقد اغتصب الملوك هذا الرمز لأنفسهم، وجعلوا مقابرهم بهيئته، ليبدو كل منهم شبيها بالإله، ولذا لم يكن الفراق واضحا بين الملوك والآلهة في القدسية والعبادة.

ولكن في عهد الأسرة الخامسة، تميزت عبادة الشمس عن عبادة الملوك، فأقيمت لها معابد خاصة هي ما نراه في «أبو صير» وكان هذا

الاتجاه الجديد، دليلا على تقدم الفكر الإنساني، ومظهرا لنفوذ كهنة الشمس.

المسلات:

كانت المسلة تقام في معبد الشمس كما رأينا رمزا للعبادة، لأن قمتها ذات الشكل الهرمي كانت تغطى بالذهب البرّاق الذي تنعكس فيه أشعة الشمس، فتبدو المسلة كأنها قطعة ساطعة من الضوء.



رسم توضيحي معبد الشمس في " أبوصير" وبه المسلة

وترى إحدى هذه المسلات بالمطرية من عهد الملك سنوسرت الأول في الدولة الوسطى.

وكثرت المسلات بعد ذلك في عصر الدولة الحديثة، وأهمها ما نراه أمام معبد الأقصر، وفي معبد الكرنك.

ومن أهم المسلات المصرية ما نقله الأجانب إلى روما وباريس ولندن ونيويورك، وهناك تزدان بها الميادين، ويجتمع الناس حولها معجبين بآيات الفن والحضارة المصرية القديمة.

معبد الكرنك:

إذا أتيحت لنا فرصة، ورأينا هذا المعبد الفخم العظيم بالأقصر، لأحس كل منا بملأ نفسه إعجابا ودهشة، فما نكاد ننفض عنا غبار السفر، حتى ننسى كل شيء، إلا ما نرى من آثار لا تحصى ولا تعد، وفي كل أثر منها ما يوحي بالعظمة والجلال.

وهذا الشعور الخفي نحسه، يذهب بنا إلى الماضي البعيد، ويفتح أمام أعيننا صفحات مجد، لا تزال آياته ظاهرة باهرة.

وأول ما يصادفنا هناك طريق عجيب صُفت على جانبيه تماثيل للكباش الخاصة بالمعبود آمون. وهذا المعبود الذي ذكرت لك اسمه، كان إله حرب، وكان رب الأرباب، في عصر من عصور مصر، ظهرت فيه قوة الجيش، لدفع أذى المستعمر، فحررت البلاد من حكم الهكسوس الطغاة، وقادتها من نصر إلى نصر، حتى تكونت لها إمبراطورية واسعة، امتدت من الشلال الرابع على النيل جنوبا، إلى أعالي نهر الفرات بالعراق، وآسيا

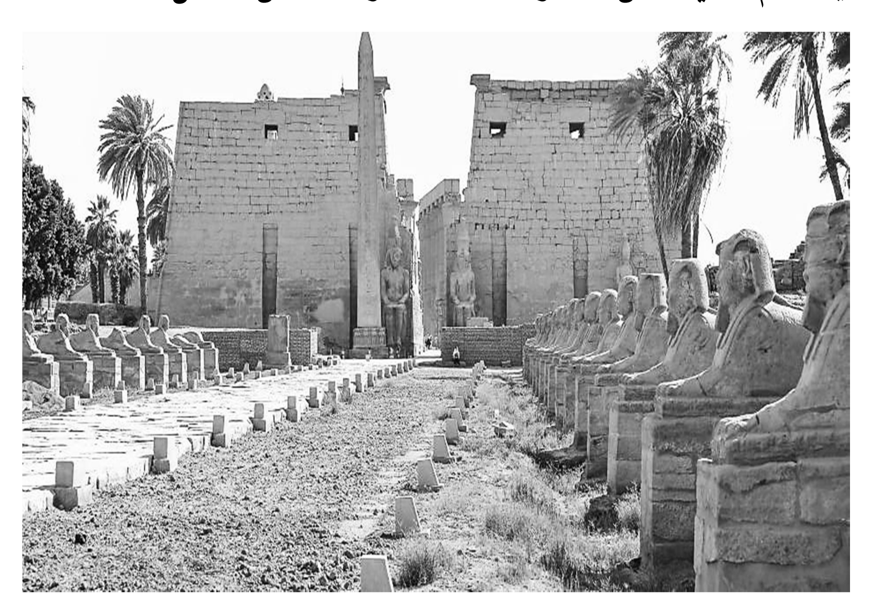
الصغرى شمالا، فكان المصريون في هذا العهد سادة الدنيا بفضل الروح العسكرية التي أدت إلى نهضتها.

فلا عجب أن يتأثر كل شيء في الحياة المصرية، بتلك الروح القوية، روح الحرب والنضال، وأن تتمثل البطولة في الإله نفسه، وإنا لنراه على جدران معبده في الكرنك، وبيده السيف، ومن خلفه البلاد المهزومة يقدمها إلى مصر راضيا.



المعبود آمون إله الحرب

ونسير في طريق الكباش الذي كان بمحاذاة النيل، حتى نصل إلى المعبد نفسه، فيزيد من دهشتنا ما نرى من ضخامة بوابته (أ) التي يعلوها برجان كأنهما القلاع أو الحصون، كما نرى سورا كبيرا من الخارج يفصل بين العالم الذي نعيش فيه، وجلال العبادة وجمال الفن بداخل المعبد.



معبد الكرنك – طريق الكباش

وما نكاد نتوسط ساحته الكبيرة المكشوفة (ب) ونتأمل السماء الصافية الرائقة، حتى نرى من اليمين ومن اليسار أبنية وأبنية لا عداد لها، بعضها أعمدة كبيرة (ج) والبعض الآخر قاعات ومحاريب للمراكب المقدسة (د)، ونرى معبدا على اليمين (هـ) أقامه الملك رمسيس الثالث مؤسس الأسرة العشرين، تقربا للإله آمون.

ونترك هذه الساحة لنطيل التأمل في بهو الأعمدة الكبيرة (و) الذي

أقامه كل من سيتي الأول ورمسيس الثاني، في الأسرة التاسعة عشرة.

وهذا البهو من أعاجيب العالم، وتتجلى فيه عظمة فن المعمار المصري، وبه ١٣٤ عموداً تجعله شبيهاً بالغابة وهو يغطي مساحة قدرها ستة آلاف متر مربع، وقد تحلت جدرانه من الداخل بمناظر دينية، ومن الخارج بما يمثل الوقائع الحربية الي خاضها سيتي الأول وابنه رمسيس الثاني ضد أعداء مصر من الحيثيين سكان آسيا الصغرى في الزمن القديم.

ونقف هنا لنرى فرعون، يتقدم الصفوف، في مركبة حربية فاخرة، وأمامه الأعداء مهزومين، ثم نعود لنقف عند مسلة حتشبسوت، التي ازدان بها فناء المعبد (ز) وتقع إلى جوارها مسلة أخرى لوالدها تحتمس الأول.

وبالقرب من هذه المسلة محراب من الجرانيت، بهيئة حجرة مستطيلة، كان يحفظ بها تمثال الإله في سفينة مقدسة.

وعلى الجدران الواقعة حول هذا المحراب مناظر انتصارات الملك القائد «تحتمس الثالث» في حروبه في آسيا، والجزية التي جمعها من الشعوب المختلفة.

وأخيرا نصل إلى الفضاء المتسع (ح) الذي كان به معبد قديم، من عهد الدولة الوسطى، ونرى في النهاية من ناحية الشرق «بهو الأعياد» الذي أقامه «تحتمس الثالث» وجعله بهيئة الخمية الحربية الكبيرة، وقد مُثّلت على جدران إحدى الغرف الواقعة خلفه، أنواع غريبة من النبات والحيوان والطيور جمعها هذا القائد من بلاد آسيا بعد انتصاره.

ونقصد بعد ذلك إلى البحيرة المقدسة الواقعى خارج المعبد وفي طريقنا

إلى العودة نشاهد معبد خونسو إله القمر وابن المعبود آمون، وهناك معبد آخر للإلهة «موت» زوجة هذا المعبود.



مقاصير الملك سيتي بمعبد الكرنك

ثالثا_ الزراعة

مثلت مناظر الزراعة القديمة على جدران المقابر كما نراها الآن في الحقول، فنجد أصحاب الأراضي الوائعة، يقفون للإشراف على أعمال الفلاحين وهم يحرثون الأرض بعد انتهاء الفيضان بمحاريث خشبية كبيرة يجرها الثيران أو الأبقار، ثم يفلحونها بالفؤوس. بعد ذلك يبذرون فيها

الحبوب ثم يطلقون الماشية والأغنام في الحقول لتسميدها وغرس الحب في التربة بأقدامها.

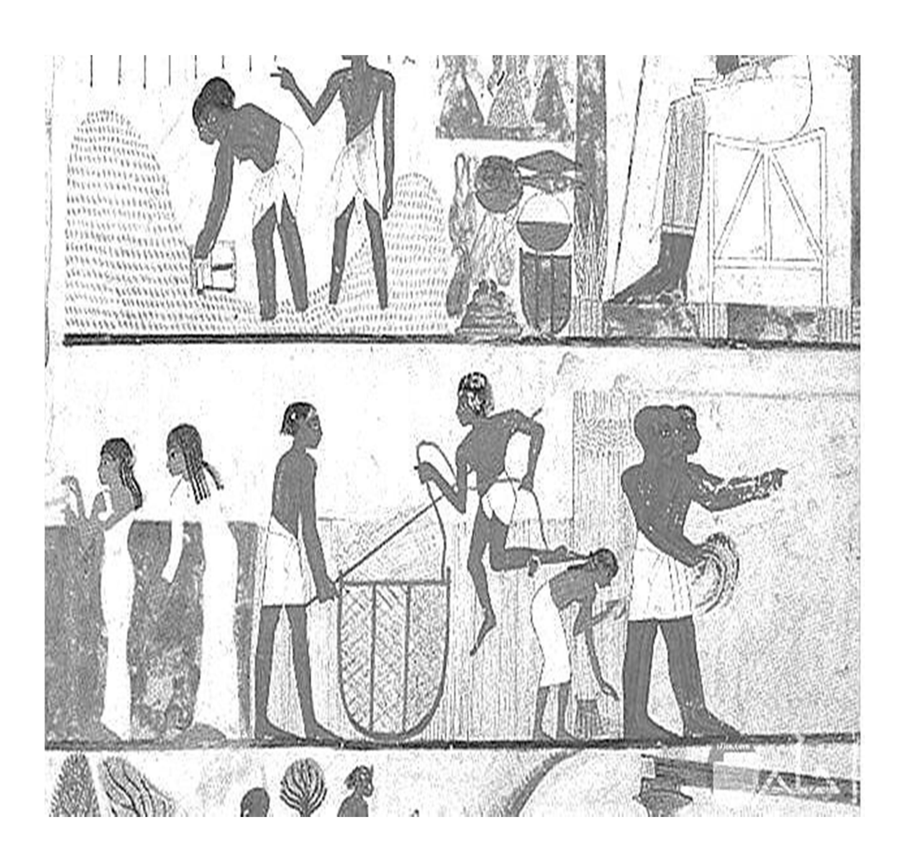
فإذا جاء وقت الحصاد، رأيت الفلاحين يقطعون سنابل القمح أو الشعير بالمناجل، ويجعلونها حزماً توضع في حقائب أو سلال كبيرة لتحمل إلى الجرن، وهناك تدوسها الثيران أو الحمير، التي تمرر عليها للدرس، بدلا من النورج الذي لم يعرف استعماله في تلك العصور.

وأخيراً يذرّي الحب في الهواء لفصله عن القش بمذراة خشبية، شبيهة بما يستعمله الفلاح الآن لهذا الغرض. وعند الفراغ من درس الحبوب وتذريتها، تكال وتحمل إلى المخازن الشبيهة بصوامع الفلاحين الحالية.

وكان الفلاح يزرع الكتان للحاجة إليه في صناعة الملابس، فيقوم عند حصاده، ينزع عيدانه بجذورها، ويزيل عنها الطين العالق بها، ثم تحزم تلك العيدان، وتنزع منها البذور بآلة كالمشط الكبير. ويظهر في الصفحة التالية منظر لجمع الكتان، وبأسفلها المراكب الخاصة بنقل المحصولات.

نشاط الفلاح في عمر

لم يعمل الفلاح في الزراعة فقط، بل كان يشتغل أيضاً بصيد السمك وقنص الطيور ورعي الماشية والأغنام وتربية الدواجن وتسميها لمائدة سيده العظيم، كما كان يجني الشهد من المناحل.



حياة الفلاحين كما ترى في مقبرة بتاح حتب بسقارة

وكان من واجبه أن يقوم في أوقات فراغه من الزراعة، بأداء ما يطلب إليه من العمل في جهات بعيدة كالمناجم والمحاجر وإقامة العمائر اللازمة للمعابد والمقابر، أو يجند للحرب عند الحاجة. وكان من الممكن القيام بتلك الأعمال عندما تغمر الأرض بمياه الفيضان.

بساطة حياة الفلاح

كانت مطالب الفلاح بسيطة، فهو يسكن كوخاً أو عشة، مبنية من مواد خفيفة كالغاب المطلي بالطين، ويتخذ ملابس تيلية قليلة.

وكانت زوجته تتحلى بعقود من خرز الفيروز أو العقيق الأحمر، وتهتم بنظافتها وتمشيط شعرها، وتستعمل هي وزوجها الكحل الأخضر لوقاية أعينهما من حرارة الشمس، وكانت دائماً تجتهد في أداء الواجبات المنزلية، وتحمل الطعام إلى زوجها في الحقل. وقد اعتقد الجميع في قوة السحر، لعلاج ما كان يصيبهم من الأمراض، ودفع أذي الحسد.

أغاني الفلاحين

أشتهر الفلاح المصري القديم بالجد والإخلاص في عمله كما اشتهر بروح المرح والتسلي بالأغاني البسيطة الحلوة. وكانت هذه الأغاني تخفف عنه متاعبه، ومنها قوله في أثناء الحرث:

«إنه ليوم جميل، يشعر الإنسان فيه باعتلال النسيم، والثيران تحرث بعزم، والسماء تبشر بالخير على حسب ما نرغب، دعنا نعمل لهذا السيد».وكان في وقت الحصاد يخاطب الثيران بقوله: «إدرسي لنفسك أيتها الثيران، فالتبن لك والشعير لسيدك، إدرسي لنفسك».

عيد الحصاد

كانت الدولة تحتفل بعيد الحصاد أياماً عدة، عند تقدير مساحة الأراضي المزروعة، وجمع غلاتها. ويبدأ الحفل بتقديم الشكر لإلهة الحصاد، وللإله آمون، وكان فرعون يقدم هذا الشكر للخالق، اعترفاً بفضله، ويعطيه نصيبه لتوزيعه على المعابد المختلفة، ثم تُحصّل ضريبة الخراج للدولة.

وفي أثناء القيام بتقديم القرابين، كان القوم يلهون، ويستمتعون

بالرقص والموسيقى والأناشيد. كما كانوا يلوّحون بسنابل القمح، وأغصان الزيتون.

المحصولات الزراعية

تنوعت المحصولات الزراعية في مصر وكان أهمها الشعير والقمح والفول والعدس والحمص، والزيتون، والكتان، والقرطم، وحب العزيز، والخروع، والسمسم.ومن النباتات الطبية، الينسون، والكمون والشبت، والنعناع والبابونج والخشخاش، والرمان والتين، والبصل والثوم، والكسبرة. وأهم أشجار الأخشاب الجميز والسنط والأنل والنخيل والدوم.

القرية المصرية القديمة

كانت القرية تتكون من أكواخ متجاورة تشبه أكواخ الفلاحين الحاليين، التي تقام من الغاب في وسط المزارع، وكان سطحها الخارجي يطلى بالطين.وعلى الرغم من تقدم الحضارة، بقيت مساكن الفلاحين وقراهم بحالتها الأولى، وكانت تفي بأغراض معيشتهم البسيطة.

قصة الفلاح الفصيح

يحكى أن فلاحاً من وادي النطرون، وجد مخازن غلاله تكاد تكون خاوية من الغلال، فحمَّل حميره محصولات قريته من الملح والنطرون وبعض الأعشاب، واتجه إلى مدينة إهناس، ليبادل بها قمحاً، وقد مرَّ في طريقه إلى هذه المدينة، بمزرعة المدير العظيم لبيت الملك، وكان بها موظف جشع، أراد أخذ الحمير غصباً، لأن أحدها ملأ فمه بحزمة من سنابل القمح،

فضرب الفلاح وأخذ حميره، ولما علم الفلاح بعدل صاحب هذه الضيعه، ذهب إليه ليشكو أمره، وأخذ يقص عليه ما أصابه بلغة فصيحة أعجبته، فذهب المدير إلى الملك ليخبره بأمر هذا الفلاح. فقال الملك لا تجبه إلي طلبه الآن، بل اتركه يستمر في الكلام، واكتب ما يقول، ولكن يجب أن ترسل في الحال طعاماً يكفي أولاده الصغار الذين ينتظرون عودته.

واستمر الفلاح في الحديث عما أصابه. وكان من قوله للمدير العظيم «أنت ميزان العدالة، ومن الخطأ أن يميل هذا الميزان، وأن يصير الرجل المستقيم معوجاً. لا تقل الكذب واحترس من الموظفين فقد اعتادوا الكذب، وإنك يا أكثر الناس علماً، هل تريد أن تعرف شيئاً عن أحوالي وأنت، يا منقذ كل غارق تجني». وفي نهاية الشكوى نال الفلاح ما كان ينغى.

وتدلنا هذه القصة على ظلم الموظفين لأبناء الشعب، وميلهم إلى السرقة والنهب في العهد الإقطاعي الذي عاش فيه هذا الفلاح.

ولم ينقذ الناس من تلك الحال إلا ملوك الدولة الوسطى في القرن العشرين قبل الميلاد، وكان من بينهم الملك إمنمحات الثالث صاحب مشروعات الفيوم.

مشروعات الفيوم

اهتم ملوك الدولة الوسطى بالزراعة والري، وظهر الإصلاح بشكل واضح في عهد الملك أمنمحات الثالث، الذي عنى بإقليم الفيوم، وكانت مياه الفيضان تغمر هذا الأقليم لإنخفاضه، فجعله خزاناً ينتفع به وقت

الحاجة، عن طريق ترعة بحر يوسف، كما أقام سداً لوقف تسرب المياه إلى الأجزاء المجاورة للبحيرة، فأمكن تجفيف كثير من أراضي الفيوم. فأصبحت صالحة للزراعة، وبلغت مساحتها ما يقرب من عشرين ألف فدان. ولذلك قيل إن الملك أمنمحات كسا البلاد حلة حضراء بسبب اهتمامه بإصلاح الري والزراعة.

رابعا_ التجارة

تقدمت التجارة لتنوع المحصولات الزراعية وكثرة المصنوعات المصرية، وسهولة المواصلات عن طريق النيل، وموقع مصر الجغرافي عند التقاء ثلاث قارات كبيرة.وكانت طريقة المقايضة أو المبادلة هي المتبعة في التجارة، سواء أكانت داخلية أو خارجية، ولكن بتقدم الزمن، لاخذت من النحاس والذهب حلقات وسبائك ذات قيمة معلومة لاستعمالها في التبادل التجاري.

أثر النيل في التجارة الداخلية

كان لانحدار مجرى النيل من الجنوب إلى الشمال، ولهبوب الرياح من الشمال إلى الجنوب، أثر هام في تسهيل الملاحة، بطريق النهر شمالا وجنوبا، فكانت السفن تحمل أنواع البضائع والغلات لتنقلها من مكان إلى آخر. واهتمت مصر بالتجارة مع بلاد النوبة والسودان لسهولة الاتصال بها عن طريق النيل، فكانت تجلب منها الذهب والعاج وخشب الأبنوس وريش النعام والنباتات العطرية والجلود المختلفة.

ولما كانت الجنادل تعوق سير الملاحة فقد شقت فيها القنوات بالقرب من أسوان؟

وقام أمراء أسوان الدولة القديمة بقيادة البعثات التجارية التي اتجهت إلى بلاد النوبة والسودان، وعادت منها محملة بالمحصولات المختلفة، وكان الاشتغال بالتجارة مع هذه البلاد سبباً في انتشار النفوذ المصري فيها. وقد تمكن «حرخوف» أمير أسوان من الوصول إلى منابع النيل، وجلب منها قزما ليتسلى الملك «ببى» الصغير برقصه.

وهكذا كان للمصريين الفضل في كشف منابع النيل كما كانوا أول من شق القنوات في الجنادل لتسهيل سير السفن والنهوض بالتجارة. وكانت البضائع تنقل كذلك بطريق القوافل على ظهور الحمير.

نمو الأسطول المصري

لما كان النيل أحسن وسيلة لنقل البضائع والحيوان والمحصولات الزراعية ومواد البناء والمصنوعات، فقد اهتم المصريون القدماء ببناء السفن منذ زمن بعيد، وكان معظمها يصنع من خشب السنط، ولكن الملك «سنفرو» مؤسس الأسرة الرابعة، أرسل إلى لبنان أربعين سفينة مصرية لجلب خشب الأرز اللازم لبناء أسطول كبير بأخشاب جيدة تستطيع مقاومة أمواج البحر.

وكانت السفن المصرية في الأسرة الخامسة تحمل الجنود إلى فلسطين وسورية، وتعود بخيرات هذه البلاد. وأبحرت السفن المصرية كذلك إلى جزيرة كريت وجزيرة قبرص في البحر المتوسط.

وهكذا تدرج المصريون في الاشتغال بالملاحة، فبدأوا بالسير في النيل، وخرجوا إلى البحار بمحاذاة الساحل، ثم تقدموا إلى عرض البحر نفسه، ولم يقفوا عند هذا الحد، فاشتغلوا بالملاحة في البحر الأحمر على الرغم من معاكسة الزوابع لسير السفن، وكثرة الجزر المرجانية الواقعة به. وكانت القصيرة أهم مواني ذلك البحر.

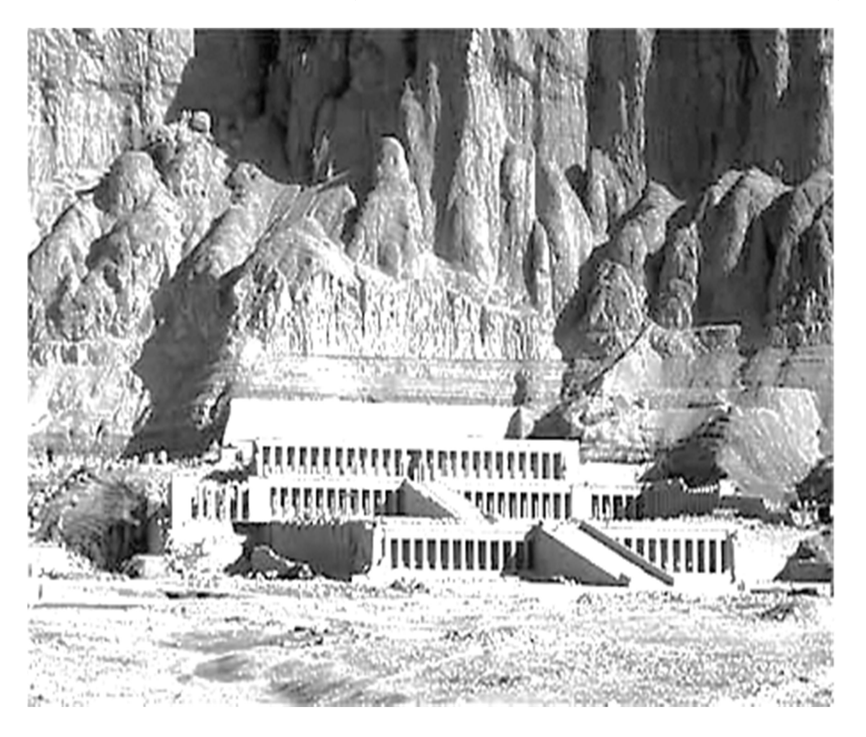
وسارت السفن المصرية في البحر الأحمر حتى وصلت إلى بلاد بونت (الصومال) في جنوبه، وجلبت منها كثيراً من المحصولات الهامة في العصور المختلفة، وكانت أهم البعثات التي أرسلت إليها في عهد الملكة حتشبسوت.

بعثة الملكة حتشبسوت إلى بلاد بونت

حينما اعتلت العرش الملكة حتشبسوت في عصر الدولة الحديثة، وكانت بطبيعتها لا تستطيع القيام بقيادة الجند كما يفعل الرجال، اتجهت إلى التفكير في عمل سلمي يعود بنفس نتيجة الحرب، من إحضار المحصولات الأجنبية إلى مصر، فنظمت رحلة بحرية من خمس سفن كبيرة لإرسالها إلى بلاد بونت ذات الخيرات الكثيرة التي يعجب بها المصريون، لما كانت تشمله من البخور اللازم للمعابد وخشب الآبنوس والعاج والذهب والحيوانات الغريبة كالنسانيس والزراف. وقد نقشت مناظر هذه الرحلة على جدران معبد الدير البحري الخاص بها. ويقع على الجانب الغربي للنيل بالأقصر.

قصة الملاح الغريق

فرح البحار، وسر بوصوله سالماً إلى العاصمة، بعد قيامه برحلة طويلة في البحر الأحمر، وكانت العواصف شديدة في أثناء قيامه بهذه الرحلة،



معبد الدير البحري الذي بنته الملكة حتشبسوت

وكان الرجال الذين معه قد تنبأوا بهبوب هذه الرياح لخبرتهم بأحوال البحر وكان الجميع يركبون سفينة من السفن المصرية، طولها ١٢٠ ذراعاً، وعرضها أربعون ذراعاً. ولما هبَّت الرياح الشديدة اندفعت الأمواج إلى السفينة فأغرقتها، ولم ينج من الملاحين إلا ملاح واحد، هو صاحب هذه القصة. وقد ألقت به الأمواج على ساحل جزيرة ليس بها إنسان غيره.

وبقى الملاح نائماً على الشاطيء ثلاثة أيام، لكثرة ما أصابه من المتاعب. ولمَّا صحا من نومه، تلفت حوله، فوجد الجزيرة غنية بأنواع الخضر والفاكهة، والسمك والطيور، فاتخذ منها طعامه وشكر للإله هذه النعمة.

وبعد ذلك سمع الملاح صوتاً كأنه الرعد، وقد خُيِّل إليه أنه صوت الأمواج، فوضع يديه على وجهخ خوفاً وجزعاً. ولما كشف عن وجهه فوجيء بثعبان كبير يقترب منه. وكان الثعبان هو صاحب هذا الصوت المفزع، وقد دهش الملاح لمرآه دهشة عظيمة. وقال الثعبان له، من أحضرك هنا؟ من أحضرك هنا أيها الصغير. تكلم وإلا قضيت عليك، وجعلتك تراباً، فأجابه الملامح وهو خائف بأن الكلام يستعصى عليه. فأخذه الثعبان في فمه، وذهب به إلى حجره، وهناك سأله مرة أخرى عمن أحضره إلى هذه الجزيرة، فقص عليه الملاح قصته، وعندئذ قال له الثعبان «لا تخف، لا تخف أيها الصغير، انظر! لقد حفظك الإله، وجاء بك إلى هذه الجزيرة لتحيا معي وتنعم بالطعام الشهي. وبعد أربعة أشهر تجيء سفينة مصرية فتحملك إلى بلدك وتعود سالما».

وقد عرف الملاح أن هذا الثعبان هو نفسه إله الجزيرة. وبقي في ضيافته مدرة أربعة أشهر كما قال له، ثم جاءت السفينة فأسرع الملاح إلى الثعبان ليخبره بوصولها، ولكن كان يعرف كل شيء وقال له: «بسلام بسلام للوطن أيها الصغير، لتشاهد أطفالك، وهذا هو كب ما أريد». وعندئذ شكر الملاح للثعبان فضله، وحمله معه إلى مصر كثيراً من محصولات تلك الجزيرة.

وهذه القصة المصرية القديمة تشبه قصص السندباد البحري، وتدلنا على ما كان يتعرض له الملاحون من أخطار السفر في البحر الأحمر، ولكن المصري لم يكن يردّه عن عزمه شيء في الوجود، ولم يكن يخاف المخاطر.

خامساً_ الجيش والروح الحربية

ارتبطت نهضة مصر بقوة جيشها، وكان الملوك الفراعنة قادة حرب، ورجال كفاح، فقام مينا على رأس جيشه بالنضال من أجل الوحدة، وقضى ملوك الدولة الوسطى على فوضى الإقطاع، وقاموا بحركة الإصلاح والتعمير والإنشاء.

فلما تفككت الوحدة وقعت البلاد فريسة في أيدي الهكسوس الأسيويين ولم ينقذها منهم إلا الجيش الذي قاده أحمس.

وتكوَّنت بفضل هذا الجيش إمبراطورية مصرية واسعة في آسيا وبلاد النوبة وجزر البحر المتوسط.

وقد خضعت هذه البلاد لحكم طيبة (الأقصر) التي أنجبت أعظم القواد وأحكم الساسة من أسرة أحمس، وأصبح الجميع في ذلك العهد يطلبون المجد عن طريق الحرب. وجاءت الوفود إلى مصر من جميع الجهات لتقديم الجزية وإظهار الخضوع لفرعون الذي كان هو نفسه قائد الجيش.

واتصلت الحرب بعبادة آمون سيد طيبة، فاعتقد الناس بأنه إله حرب يمد الملوك بالنصر ويلقي الرعب في قلوب الأعداء.

تكوين الجيش

في مناظر الحرب التي نراها على جدران المعابد ما يمثل شجاعة الجند وبطولة القادة وحبهم للوطن. فالجندي المصري كان يؤمن بأنه عظيم وقوي ويفوق غيره في جميع البلاد ويرى أن الشعوب الأخرى همج لا تستحق الحياة، وكانت تدفعه إلى النصر روح قوية من الثقة والعزم.

ونرى في مناظر الحرب كيف تكوَّن الجيش المنظم الذي أعلى شأن مصر. ويتلخص هذا التكوين فيما يأتي:

١– الفرعون القائد: نراه جالساً في معسكره على عرش من ذهب، يحيط به حرسه الخاص، وبجانبه كبار رجال الدولة يشاورهم في أمر القتال، وقد يلوم بعضهم إذا وجد في مشورتهم ما يدل على ضعف العزيمة والخوف من الأعداء، ثم يستعد للهجوم بغير تردد.

٢– المخابرات العسكرية: يحدث في أثناء اجتماع القائد الأعلى برجال جيشه أن يجيء المختصون بالمخابرات العسكرية والتجسس على الأعداء بالأخبار الصادقة عن تحركات العدو، والمواقع التي يتجمع فيها، فتُدبر خطة الهجوم بسرعة.

٣– فرق الجيش: نرى عند الهجوم فرق الجيش المصري تتألف من المشاة يسيرون في صفوف منتظمة، والرماة من حملة الأقواس والسهام يصوبونها إلى العدو، وقد عرف المصريون من الهكسوس الأسيويين استعمال الخيل في القتال، فظهلات فرق الخيالة التي كانت تنهب الأرض بالعجلات الحربية، فظهرت فرق الخيالة التي كانت تنهب

الأرض بالعجلات الحربية، وتنقض على العدو كالصاعقة. وكانت هذه الفرق. تكوَّن قلب الجيش، وجناحيه. وكانت للأسطول الحربي أهمية كبيرة في الاستيلاء على السواحل ومعاونة الجيوش البرية، ومدّها بالأغذية والأسلحة.

أزياء الجند وأسلحتهم

كان الجندي يلبس ثوباً قصيراً، ويضع على رأسه قبعة محشوة بالقش، ويحمل درعه التي تقيه سهام الأعداء، وقد يلبس قميصاً من المعدن لهذه الغاية، ونراه وفي يده جربة طويلة أو بلطة، وقد يستعمل سيفاً مقوساً أو خنجراً. أما الرماة فيحملون الأقواس والسهام.

ونرى بعض الجنود أحياناً يعصبون رءوسهم بشرائط تتدلى أطرافها على الظهر.

وقد تتبعهم كلابهم المدربة على فنون القتال، وكانت هذه الكلاب تستخدم لاقنفاء أثر العدو أو مهاجمته، وهي من النوع السلوقي (كلاب الصيد).



الاسطول الحربي في الدولة الحديثة

مصلحة الأسلحة

كانت إدارة الأسلحة تشرف على جمع المجندين الذين يسمَّون «الشباب الجميل» وكانت تزود الجيش بما يحتاج إليه من الأسلحة، وتمد الأسطول الحربي بالسفن اللازمة له، ويجّهز المحاربين بالأغذية والملابس، كما اختصت ببناء السفن وإقامة الحصون.

جيوش الأقاليم

حينما ضعف الملوك في نهاية عصر بناة الأهرام في الدولة القديمة، استقل الأمراء بالحكم في الأقاليم وأصبح لكل منهم جيش خاص. وكان الأمراء يتحالفون معاً في كثير من الأحيان للعراك مع الآخرين، فتكونت لذلك قوة كبيرة من جيوش الجنوب على رأسها أمراء طيبة، وقوة أخرى في الشمال بزعامة أمراء أسيوط وملوك إهناس، وقامت الحرب بين هاتين القوتين زمناً طويلاً، ثم انتصر أمراء طيبة في النهاية. وتأسست بذلك الأسرتان الحادية عشرة، والثانية عشرة في الدولة الوسطى.

وعلى الرغم من الوحدة التي تمت بين الشمال والجنوب، بفضل ملوك هاتين الأسرتين، احتفظ أمراء الأقاليم بجيوشهم المحلية، ولكنهم وضعوها في خدمة الملوك لحماية البلاد من أعدائها والقيام بالفتوح الخارجية.

ونرى في مقابر بني حسن ما يدل على قوة هذه الجيوش، والعناية بتدريب الشباب على ألعاب القوى والمصارعة، والرياضة البدنية، والحركات الحربية، وحصار المدن والحصون.

قصة سنوهي

ترجع هذه القصة إلى عهد الدولة الوسطى. فيحكى أن سنوهي، كان ضابطاً في الجيش الذي قاده الأمير «سنوسرت» لمحاربة اللوبيين في غرب الدلتا.

ولما كان الجيش عائداً بعد انتصاره، علم سنوسرت بموت أبيه الملك أمنيمحات، الذي أسس الأسرة الثانية عشرة، فأخفى هذا الخبر عن رجال جيشه. ولكن سنوهي علم به، وفرّ هارباً لسبب لا تعلمه.

وأخذ سنوهي ينتقل من بلد إلى آخر، حتى وصل إلى فلسطين، وهناك استقبله أحد مشايخ القبائل، وزوّجه من كبرى بناته، ومنحه قطعة من الأرض فيها كثير من القمح والشعير، والعنب والتين والزيتون، والنبيذ والشهد، وكثير من الماشية.

وقضى هناك سنوات عدة، وأصبح رئيساً لجيش القبيلة، فكان يؤدب البدو المشتغلين بالسلب والنهب، والخارجين عن الطاعة. وجاءه ذات مرة، رجل قوي من فلسطين يريد مبارزته وأخذ ماشيته.

وبقي سنوهي طول الليل يستعد لقتال هذا الرجل، فشد قوسه وجّهز سهامه وخنجره وصقل أسلحته.وعندما طلع الفجر بدأت المبارزة بينهما، واجتمع كثير من النساء والرجال يشهدون هذا العراك، ويخافون على سنوهي أن يصيبه مكروه، ولكنه استطاع أن يتفادى سهام عدوه بمهارة، وفي لمح البصر صوّب سنوهي سهمه نحو البدوي فلصق بعنقهن وجعله يسقط على أنفه.

وبعد ذلك أخذ سنوهي كل متاعه، ونهب معسكره وأخذ ماشيته، فأصبح واسع الثروة، واشتهر في كل مكان.

ولما كبر سنة وأحس بالموت يقترب منه، اشتاق إلى أرض الوطن، وتمنى لو يعود إلى مصر ليدفن بها، فأرسل إلى الملك سنوسرت، يطلب منه العفو، ويرجوه في العودة، وكان له ما أراد. واستعد سنوهي للعودة إلى وطنه، فسلم ابنه زمام القبيلة، وجدّ في المسير حتى وصل إلى الحدود المصرية.

وهناك استوقفه القائد المكلف بحراسة الحدود وقتاً قصيراً، وكتب إلى

رجال القصر يثبتهم بوصوله. وبعد عدة أيام استقبله الملك في العاصمة، وهو بلبتس البدو، فكان منظره غريباً، وقال الملك لزوجته (هذا هو سنوهي عاد إلينا كأسيوي من نسل البدو) فصاحت الملكة، وكذلك صاح أولاد الملك وبناته جميعاً قائلين (حقاً كأنه ليس هو).

وعندئذ قال الملك «لن يخاف لأنه سيصبح أميناً في القصر وسيوضع بين رجال الحاشية. إذهبوا به إلى قاعة الزينة وكونوا في خدمته».

وذهب سنوهي بعد ذلك ليستحم، وزُيّن بأحسن ملابس الكتان، وذلك جسده بأحسن أنواع الزيوت العطرية، وحلقت لحيته.ولما جاء الليل نام على سرير، بعد أن كان يفترش الرمال، وعاش بعد ذلك منعما.

وهذه القصة تدلنا على حياة البدو في فلسطين، وبُعدهم عن الحضارة، كما تدل على شدة حب المصري لوطنه، وتفوقه في كل مكان ينزل به، وبطولته في القتال والمبارزة، وتمتعه بالنعيم في بلده، كما تدل على الفرق الكبير بين الحضارة المصرية المتحضرة، وحياة البدو الخشنة.

طرد الهكسوس

في نهاية الدولة الوسطى، هاجر الهكسوس من فلسطين، إلى أرض الدلتا، وأخذ نفوذهم يقوى شيئاً فشيئاً، حتى تمكنوا من حكم البلاد مدة خمسين ومائة عام.

وقد سّماهم المصريون «الطاعون» احتقاراً لهم، وكانوا يسمون كذلك الملوك الرعاة. وأصبحوا مكروهين من الجميع لقسوتهم واعتدائهم على أرض الوطن.

وذات مرة جلس «كامس» أمير طيبة بين رجال حاشيته، للتشاور في القيام بالحرب لطردهم، وكانت جدته «تيتي شري» قد حدثته عما فعله الهكسوس مع والده الذي مات شهيداً في ساحة القتال، فقال كامس: «حدثوني ما قيمة الشجاعة، ونحن هنا بين أسيوي يحكم في الشمال، ونوبي يتحكم في الجنوب؟ وهل أظل مكتوف اليدين، وقد تجاسر البدو (الهكسوس) على الزحف إلى منف، العاصمة القديمة، وتقدموا نحو الجنوب؟».

وقد أفزع القول رجال الحاشية من أصحاب المصالح العاجلة، ومن كبار السن، فنصحوا للأمير بالتمهل والصبر، عسى الله أن يأتي بالفرج.

وقالوا له، مالنا وهؤلاء البدو، ما دمنا آمنين في بلادنا، وأرزاقنا تجري كافية لنا، وعيشتنا هنيئة من غير حرب، فلننتظر حتى إذا هاجمونا في أرضنا، كان لنا معهم حساب آخر.

ولما سمع الأمير «كامس» هذا السخف صاح قائلا: «هذا لا يكون، بل سأخرج على رأس جيشي لطرد الأعداء من البلاد، وتحرير مصر من نفوذ الأجنبي، ولسوف يهديني آمون سبيل الرشاد».



أحمس في حربة ضد الهكسوس

وعندئذ جهَّز جيشه، وهاجم العدو بقوة، ولكنه مات وهو في سن صغيرة، غحمل لواء الجهاد أخوه «أحمس» الذي استمر في قتال الهكسوس حتى حاصرهم في «أوراريس» عاصمة ملكهم في الدلتا، وكان رجال جيشه كالأسود عند الهجوم على الفريسة، فتمكنوا من طرد الأعداء إلى فلسطين.

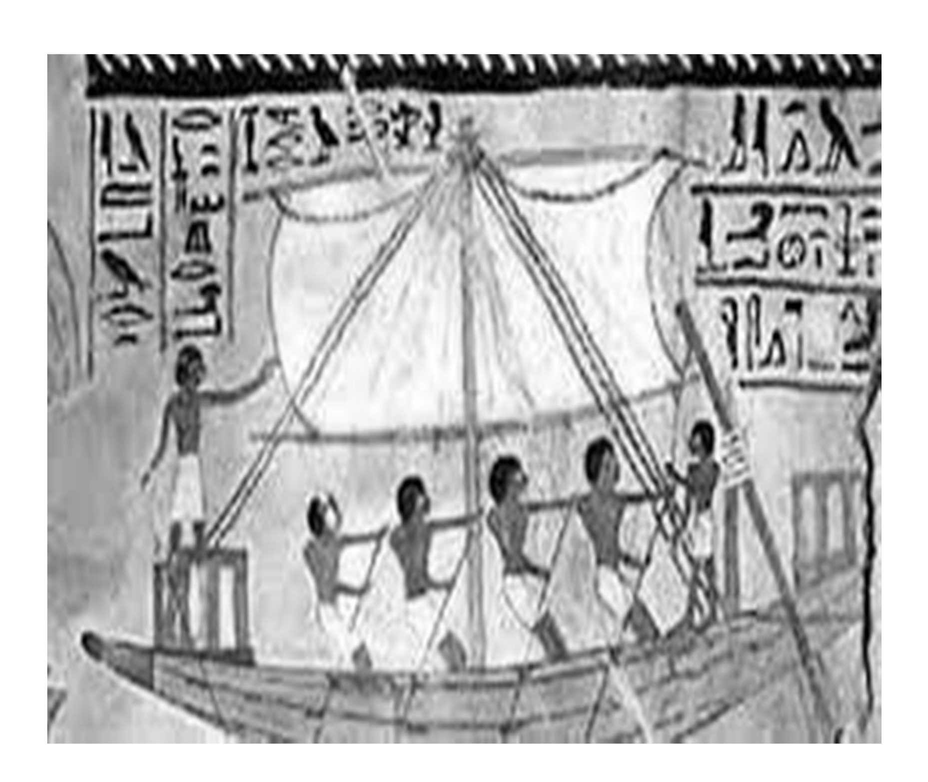
وهناك احتمى الهكسوس بحصن حصين في بلد يسمى «شاروهين» وقد تبعهم أحمس بجيشة، حتى لحق بهم، وضيّق الحصار عليهم في تلك

المدينة، ثلاثة أعوام كاملة، تشتتوا بعدها، وعاد محرر مصر وبطل استقلالها لبناء مجد الوطن، وأسس الأسرة الثامنة عشرة، التي بدأ بها عهد الدولة الحديثة حوالي عام ١٥٨٠ قبل الميلاد.

نمو الروح الحربية وتكوين الأمبراطورية المصرية

كان تحرير مصر من حكم الهكسوس مشجعاً لأبنائها على مواصلة الحرب والفتوح، لضمان سلامة الحدود من أي اعتداء آخر، وطلباً للمجد والفخار، ونهضت مصر نهضتها الكبيرة على أساس التوسع في السيادة الخارجية.

وأقبل الجميع في تلك الآونة على الخدمة في الجيش بسبب ما كان يعود عليهم من غنائم الحرب ومكافأة الدولة لهم بالذهب والمناصب على حسب ما يظهرونه من براعة وشجاعة.



الاسطول البحري في الامبراطورية القديمة

ولم تمض إلا فترة وجيزة حتى كان لمصر إمبراطورية واسعة في آسيا وبلاد النوبة وجزر البحر المتوسط. وأصبحت الأقصر عاصمة بهذه الإمبراطورية، فتمتعت بالثروة الضخمة، وازدانت بأجمل الأبنية وأفخم المعابد، وامتلأت قصورها بالأثاث الفاخر ومظاهر النعيم، وصارت كعبة يقصد الناس إليها في كل مكان، لتقديم الجزية وإظهار الخضوع لفرعون، أو لتلقي العلم والثقافة في معاهدها المختلفة.

وظهرت الحضارة المصرية في ذلك العهد بمزاياها العظيمة، فتأثرت بها بلاد الشرق والنوبة. وكان أكبر الفضل فيما نالته مصر في شهرة واسعة،

وقوة وسيادة، يرجع إلى بطولة تحتمس الثالث، ورمسيس الثاني، وغيرهما من ملوك الدولة الحديثة.

تحتمس الثالث

يُعد تحتمس الثالث من أعظم قادة الحرب في تاريخ العالم قديمه وحديثه. وكان قبل انفراده بالملك في خلاف مستمر مع الملكة حتشبسوت المسالمة، فلما خلا له الجو انطلق كالسهم يعمل لتأديب الثائرين على الحكم المصري في آسيا، وقام بسبع عشرة حملة حربية، أظهر فيها من آيات الشجاعة والحزم والدقة في وضع الخطط المحكمة ما جعل الجميع يخافونه ويخشون بأسه.

حروب تحتمس الثالث

كان من أهم الحروب التي قام بها هذا الفاتح العظيم مهاجمة مجدّو بفلسطين، وكان الأعداء قد تجمعوا فيها بزعامة أمير قادش (مدينة في شمال سورية) فاتجه إليهم مسرعاً، وصادف يوم وصوله إلى غزة القريبة منها، أنه كان عيد تتويجه، فلم يهتم بإحيائه، بل تقدم إلى الأعداء وسار في طريق وعرة ضيقة، بالرغم من نصيحة القواد له بالسير في طريق أخرى سهلة، فتمكن بفضل هذه الخطة من مفاجأة أعدائه الذين فرّوا إلى الحصن مذعورين، وأحكم الحصار على المدينة فكاد أهلها يقتلون جوعاً. وتعالى صياحهم في طلب الأمان، وجاء الرؤساء يقبّون الأرض عند قدميه، فأخلى سبيلهم بعد الاستسلاء على أسلحتهم. واستولى على عدد كبير من الخيل، والعربات الحربية الموشاة بالذهب والفضة، والدروع المصنوعة من البرونز

والجلود، ثم عاد إلى مصر بهذه الثروة لتقديم جانب كبير منها إلى معبد الكرنك الذي أقام فيه الاحتفال بالنصر.

وي حملاته الأخرى استولى على الجزء الساحلي من لبنان، واتخذه قاعدة للأسطول ومركزاً للتموين، يساعده على التقدم في داخل البلاد الأسيوية في حروبه المقبلة، وتمكن بفضل هذه الخطة، من وضع يده على سورية كلها، وكانت قادش من أهم مدنها، ثم وصل إلى أعالي نهر الفرات بالعراق، حيث وضع لوحة تذكارية لحدود بلاده من ناحية الشمال، في حين جعل الشلال الرابع حداً لملكه في الجنوب.

سياسته

استبقى تحتمس الحكام الأصليين في بلاد آسيا دون أن يمسهم بسوء، ولكنه أخذ أبناءهم رهائن عنده، وأرسلهم إلى مصر ليتعلموا في مدرسة الكرنك، حتى إذا عادوا للحكم بدلاً من آبائهم كانوا أصدقاء لمصر. محبين لها. وقد ترك تحتمس الثالث حاميات عسكرية في جهات مختلفة للمحافظة على الأمن هناك ومنع العدوان.

أما في بلاد النوبة فكان الحاكم مصرياً ويسمى ابن الملك. ومن هذا نستدل على أن تحتمس لم يكن قائداً حربياً فحسب، بل كان أيضاً سياسياً حكيما وإدارياً بارعاً.

رمسيس الثاني

هدأت الأحوال في الإمبراطورية التي أسسها تحتمس الثالث، وحافظ عليها الملوك الذين جاءوا من بعده، ولكن اخناتون ترك فكرة الحرب حباً

في الإنسانية، وعملا بمباديء الحرية والإخاء والمساواة بين الناس جميعاً، وشغل نفسه بإقامة عبادة جديدة تدعو إلى التوحيد، ولذا أخذت ممتلكات مصر تستقل عنها الواحدة بعد الأخرى، وطمع فيها الحيثيون من سكان آسيا الصغرى.

فلما تأسست الأسرة التاسعة عشرة، ظهر ملك شجاع، هو رمسيس الثاني، وكان مغرماً بالحروب، فسارع إلى تكوين جيش قوي من أربعة ألوية، كل منها يحمل اسم أحد الآلهة، مثل آمون ورع، وتمكن من الاستيلاء على شاطيء لبنان كما فعل تحتمس الثالث من قبل، ثم تقدم في السنوات التالية إلى مدينة قادش الحصينة، وانتصر على الحيثيين فيها بعد جهد كبير، لأن جواسيس الأعداء مكروا به. فأرغم على القتال قبل الاستعداد للموقعة.

واشتبك رمسيس بعد ذلك مع الحيثيين في قتال دام عشر سنين وأخيراً تم الصلح بين البلدين، وكان الصلح خيراً من حرب لا نهاية لها.

واهتم رمسيس في عهد السلام بنقش مناظر حروبه على جدران المعابد التي أقامها في كثير من الجهات، كما نجد على جدران معبد الأقصر والرمسيوم.



معبد الرمسيوم الجنائزية في عهد رمسيس الثاني — أهم المعابد الجنائزية

سادساً_ الفنون

كان الفن المصري القديم، مظهرا للمهارة العظيمة والذوق الجميل، وكأن معبراً عن مظاهر الحضارة كالصناعة والزراعة والتجارة والحرب والملاحة ونظم الحكومة والحياة الخاصة والعامة، فهو سجل لهذا كله.

وبفضل هذا الفن الجميل، أمكننا أن نعرف كيف كان القوم يعيشون وكيف كانت تقام أبنيتهم، وكيف يلهون ويستمتعون ويؤدون فروض العبادة.

وللفن المصري صفات خاصة ميزته عن جميع فنون العالم أهمها:

١- التأثر بالمكان: أي البيئة التي نشأ فيها، ويتضح ذلك في إقامة المقابر على حافة الصحراء، لتكون بعيدة عن مياه الفيضان مما يساعد على حفظها مدة كبيرة.

أما المساكن التي كانت في المدن والقرى، فكانت كلها تبنى من الطوب، الذي جعل الجو بداخلها معتدلا، لعدم سهولة امتصاصه للحرارة كما هو الحال في الحجر. وقد طبعت البيئة الفن المصري بروح من الصفاء والهدوء والرضا، وكان الفنان يمثّل ما يراه ويحسه في سماء بلاده وأرضها.

٢- الاعتقاد بأن الحياة لا تنتهي بعد الموت، جمّل المقابر بمناظر هذه الحياة فيما نراه من تمثيل كل أنواع النشاط والحركة والحب والحنان والعذوبة والرقة. وقد دعا هذا الاعتقاد إلى كثرة إنشاء التماثيل بهيئة الإنسان والحيوان. وكان تدين المصريين سبباً في إقامة المعابد بكثرة لآلهتهم، وهذه المعابد تمثل النبات بأعمدتها، والسماء بسقفها، والماء يجري في بحيراتها المقدسة، كما تمثل الضوء في الأفنية المكشوفة والظلام في المحاريب الداخلية فكأنها قطعة من الوجود تنطق بإبداع الخالق.

٣- تمجيد البطولة ظاهر في تمثيل المواقع الحربية التي يبدو فيها فوعون عظيم القوة مستهيناً بالأعداء، وترى في هذه المناظر الجند الشجعان يرفعون شأن الوطن ويكسبون له النصر في كل مكان.

٤- وفي كل هذه الآثار الفنية، تظهر القدرة والدقة والجمال، والمواهب العقلية الكبيرة، مما يجعلها تترك فينا أثراً يهز النفوس، فتقف أمامها

ونحن في دهشة من ضخامتها، وصحة أوضاعها الهندسية، وتناسب أجزائها، ونعجب كيف بقيت طول هذا الزمن سليمة، وألوانها كما هي لم تتغير.وقد ظهرت قدرة الفنان في نحت أصلب الأحجار وجعلها مصقولة لامعة.

٥- نما هذا الفن وتطور حتى بلغ درجة عالية من الكمال، من غير أن يتأثر بغيره من فنون الشعوب التي اتصل المصريون بها لما فيه من عناصر القوة، وقد حدث العكس فكان الفنانون في الأمم الأخرى القديمة يقلدونه ويتأثرون به.

أنواع الفنون الجميلة

التصوير

بدأ المصريون في أول عهدهم بالحضارة يشتغلون بالرسم والتصوير، فكانت الرسوم التي وجدت على الآنية الفخارية تصور الرقص ومناظر السفن وبعض أنواع الحيوان والنبات، ثم تعلموا حفر هذه المناظر في الحجر بأشكال بارزة، وإذا كانت طبيعة الأحجار في المقابر رديئة فإنهم كانوا يكسونها بطبقة من الملاط (الجبس) يرسمون عليها ما شاءوا من المناظر.

وتقدم فن التصوير في الدولة الحديثة، فنرى في مقابر طيبة رسوماً جميلة لمناظر ملونة تمثل الحياة المصرية والعقائد الدينية، كما نرى بينها زخارف على أشكال نباتية أو هندسية، وبلغ هذا الفن درجة كبيرة من الجمال في عهد إخناتون، كما يشاهد في المناظر التي تصور الطبيعة بأحسن ما فيها من نبات وحيوان وطيور.

النقش

ساعدت الكتابة المصرية القديمة على تقدم فن النقش فكانت ترسم أولا بأشكال من الطبيعة كأنواع الطيور والحيوان والنبات وغيرها، ثم تنقش على الأحجار والعاج نقشاً بارزاً أو غائراً، واتبعت هذه الطريقة بعد ذلك في نقش مناظر الحياة والعبادة، على جدران المعابد والمقابر. وارتقى هذا الفن من عصر إلى آخر، حتى بلغ درجة سامية في عهد الأسرة الخامسة، كما نرى في مقابر سقارة.

نحت التماثيل

كانت التماثيل في أول أمرها تنحت من العاج أو الأحجار الهشة، ثم جرّب الفنان قدرته، واتخذها من الأحجار الصلبة كالجرانيت والديوريت الذي اتخذ منه تمثال الملك خفرع.



الملك خفرع

وعلى الرغم من صلابة الأحجار، استطاع الفنان إخراج التماثيل بدقة، ومثَّل فيها العظمة والجلال. وكثيراً ما نرى ابتسامة حلوة على الشفاه.

أما التماثيل المنحوتة من الخشب فتظهر فيها أنواع الحركة والرشاقة بكثرة، وقد قصد من عمل التماثيل أن تحل بها الروح كما كانت تحل من قبل في الأجسام، ولذا كان الاهتمام كبيراً بجعل وجوهها شبيهة بوجوه أصحابها، وعنى الفنان بإخراج الأجسام معبرة عن الصحة والقوة والجمال.

وكانت وجوه بعض تماثيل الملوك في الدولة الوسطى، تعبر عن العواطف الإنسانية من حزن وآلام، وجرأة وإقدام، وقوة وعزم. وقد تبدو بها التجاعيد من أثر الشيخوخة.

وأحياناً نرى التماثيل في هذا العهد، وفي الدولة الحديثة، غاية في الضخامة، والسبب في ذلك يرجع إلى أنها كانت تقام في المعابد الضخمة، فكان ارتفاعها الهائل يناسب ارتفاع الجدران والأعمدة القريبة منها.

فن العمارة

المصريون أول من وضع أساس فن العمارة في العالم كله، وأول من استخدم الأحجار بعناية وأشكال جميلة في البناء. وقد جعلوا الأعمدة بأشكال نباتية لأول مرة في التاريخ، فكانت تشبه حزما من الغاب، أو تحاكي نبات اللوتس والبردي والنخيل.

وكان بناء الأهرام مظهراً قوياً لهذا الفن في الدولة القديمة، ثم أصبح للمعابد شأن هام في الدولة الحديثة كما رأينا في وصف معبد الكرنك، وقد جاء معبد الأقصر فنية خالدة بما فيه من أعمدة جميلة.

تطور فن العمارة

كان من أثر العقيدة في الحياة الآخرة أن أقام ملوك الدولة القديمة فوق مقابرهم أهراماً ترمز لعبادة الشمس، وكأنها جبال عالية، ولكنها لم تسلم من عبث اللصوص ففتحت أبوابها، ونهبت محتوياتها الذهبية.

فلما جاء ملوك الدولة الحديثة لم يجعلوا مقابرهم ظاهرة فوق سطح الأرض كيلا يكون مصيرها كمصير الأهرام التي نهبت، فتحتوها تحت سطح الأرض إلى عمق كبير، وأخفوا مكانها عن الأنظار، وأقاموا العقبات الكثيرة لتضليل اللصوص. لكنهم اهتموا كل الاهتمام بإنشاء المعابد الخاصة بهم، في البر الغربي للنيل بالأقصر وإقامة المعابد للآلهة في البر الشرقي. وكانت هذه المعابد عظيمة السعة.

وهذه المقابر منحوتة في وادي الملوك، ومن بينها قبر توت عنخ آمون. ونرى في المناظر المنقوشة على جدرانها وصف العالم الآخر الذي يحكمه أوزيرس، إله الموتى، ووصف السماء، مسكن رع إله الشمس، وما فيها من جنات النعيم التي يتمتع بها الصالحون.

عظمة الفن والآثار في عهد إخناتون

حينما ولي الحكم الملك إخناتون، اتجه إلى الله بقلب سليم، وآمن بأنه واحد لا شريك له، وأنه نور السموات والأرض، وحياة وجمال وحب. وهو في اعتقاده أبدي لا أول له ولا آخر، ومبدع الجمال الذي يرى في لون الأزهار وفي الطبيعة عند شروق الشمس وغروبها.

وكان شعار هذا الملك حب الحقيقة لجمالها. وقد أحب الإنسانية

ومباديء الإخاء والحرية. وجعل الفنانين يؤمنون معه بهذه المباديء، ويعملون بوحي من الحقيقة، في حرية زائدة، حتى لقد احترأوا على إظهار القبح في أعضاء جسمه وملامح وجهه.

وفرق كبير بين مظهر إخناتون، وهو بهذه الهيئة، ومنظر الملوك الذين كانوا يصورون من قبل كالآلهة، ويهتمون بمظاهر الجلال والعظمة.



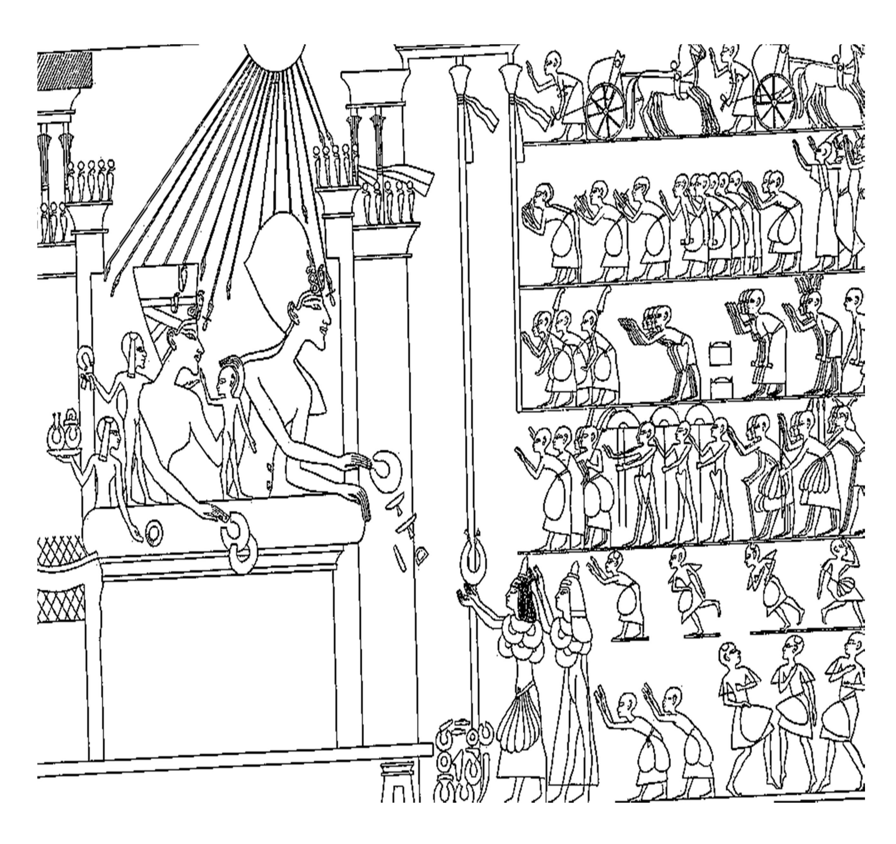
منحوتاتان لاخناتون

وأكثر من ذلك أن الحرية التي أتيحت للفنانين، جعلتهم يصورون الملك مع أفراد أسرته بهيئة ليس فيها من جلال الملك شيء. فنراه يأكل الطعام بجشع، أو يظهر مع زوجته نفرتيتي والأميرات ليطل على الشعب من شرفة القصر، وهم جميعاً عراة الأجسام تقريباً.

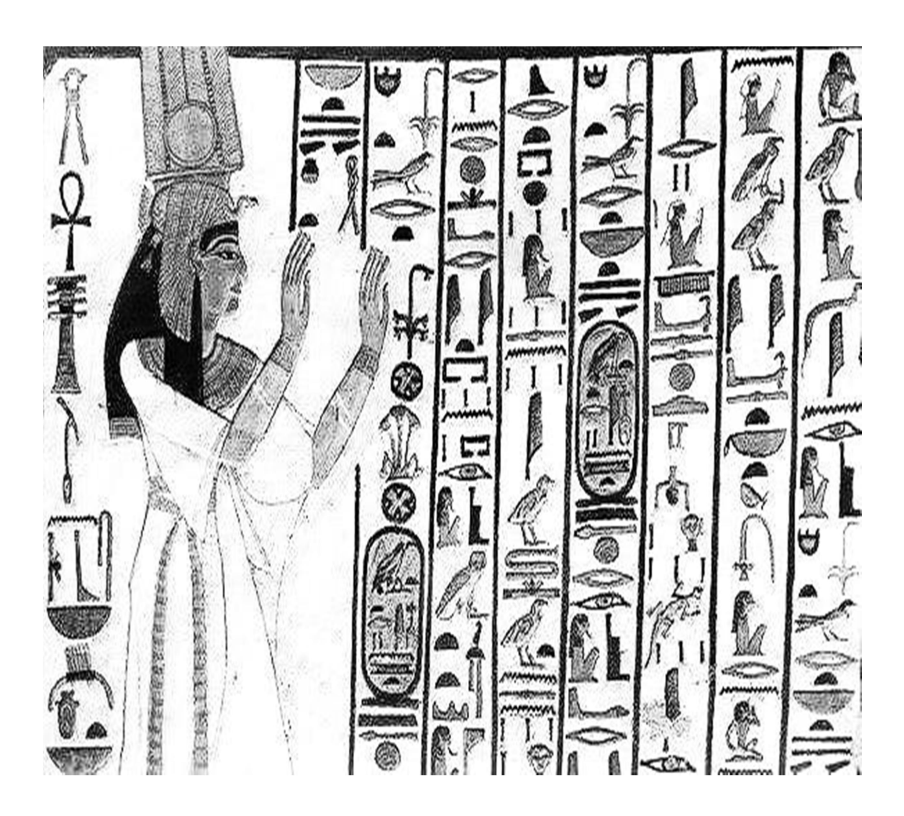
ونرى الملك هنا يقوم بالإنعام على كاهنه الأكبر المسمى «آي» بالأوسمة والهدايا الذهبية في احتفال شعبي، وقد وقف في ساحة القصر جمع كبير من رجال الحاشية والخدم والجنود، والبشر يفيض من وجوههم جميعاً بينما نرى الصبية يقفزون فرحاً.



الملك اخناتون



اخناتون يطل من شرفة القصر لمكافأة الكاهن آي



الفنان المصري القديم أبدع في فن الرسم والنحت



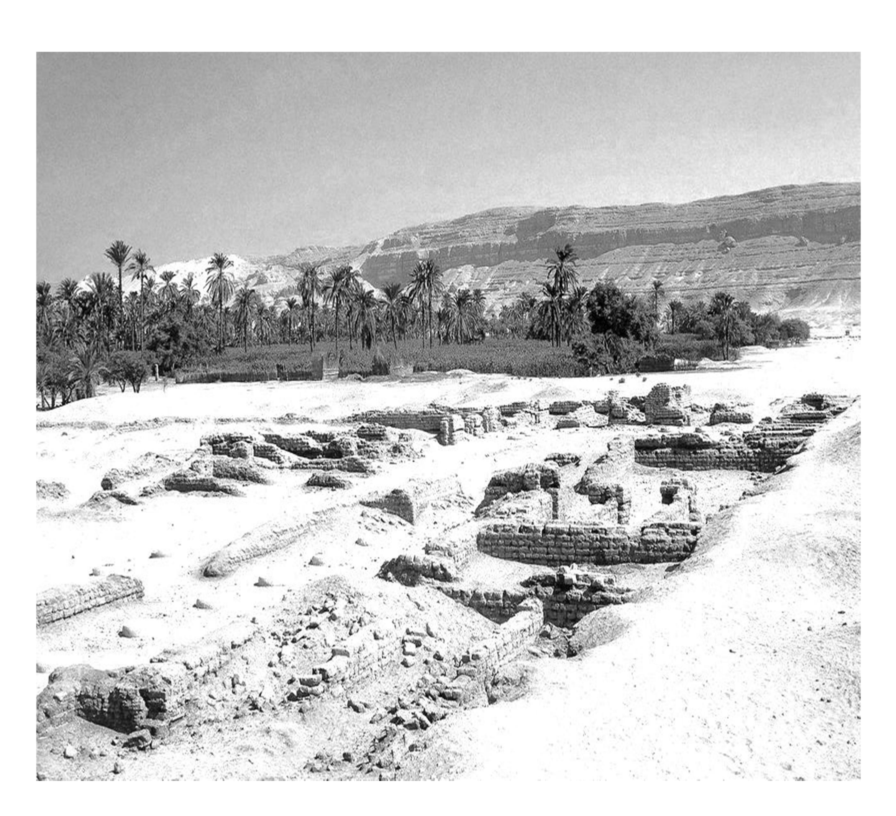
إخناتون ونفرتيتي يعبدون أتون ، تل العمارنة

ونلاحظ هنا أن الفنان مقبل على عمله بكل همة وإخلاص، وقد وقف أحد تلاميذ هذا الفنان يتأمل حركات معلمه، المنهك في فنه، وفي الجانب الأيسر من الصورة ما يمثل مساعديه يقومون بعمل رءوس لتماثيل أخرى من الخشب ورجل كرسي.

وهكذا خرج الفنانون في هذا العصر من التقاليد القديمة، فكان للحرية أثر كبير في تقدم الفن.

مباني مدينة تل العمارنة

نرى في بعض النقوش ما يمثِّل أحد أجزاء القصر الملكي، وفيه بناء خاص بتخزين الطعام وطهيه، وبجانبه بعض الغرف للأميرات.



أنقاض عاصمة فرعون أخناتون ، تل العمارنة.

وقد شغل الأميرات بالعزف على الآلات الموسيقية، التي يرى بعضها معلقاً على الجدران. وفي أعلى الصورة أميرة تمشط شعر أختها وأخرى تصنع الكعك وتتذوقه.

أما الخدم فقد وقفوا للحراسة أو الاشتغال بالكنس والنظافة والطهي وإشعال البخور.

وبين الآثار التي نجدها في تل العمارنة، وهي مقر الملك في هذا العصر، بقايا الأبنية القديمة، وكان منها القصور الملكية ودواوين الحكومة ومعبدآتون العظيم، والجامعة أو بيت الحياة كما يسمونها، ومركز الشؤطة، ومساكن كبار الموظفين والكهنة، وقد خصص الجزء الشمالي من المدينة لمنازل الطبقة الوسطى المؤلفة من التجار والصناع، ونجد بعدها حديقة للحيوان، كانت بها أحواض للسمك، وأماكن للطيور، وقد نقشت على جدرانها مناظر تمثلها بين النباتات المختلفة.

وكل هذه الأبنية مقامة من اللبن (الطوب) الذي يساعد على حفظ جو المنزل رَطباً في الصيف ودافئاً في الشتاء، وكانت الأعمدة تصنع من الخشب، وتوضع على قواعد من الحجر.

وكان لكل بيت بناء خارجي للبواب الذي نراه واقفاً بجوار الواجهة الجميلة.



نقوش على أحد معابد تل العمارنة

ويستقبلنا عند دخول المنزل بهو خاص بالضيوف وتناول الطعام والغسل، وإلى جانبه موقد للتدفئة في ليالي الشتاء، ونرى على جدرانه عادة بعض المناظر التي تمثل الزهور والطيور، وأنواع الحيوان في أوضاعها الطبيعية.

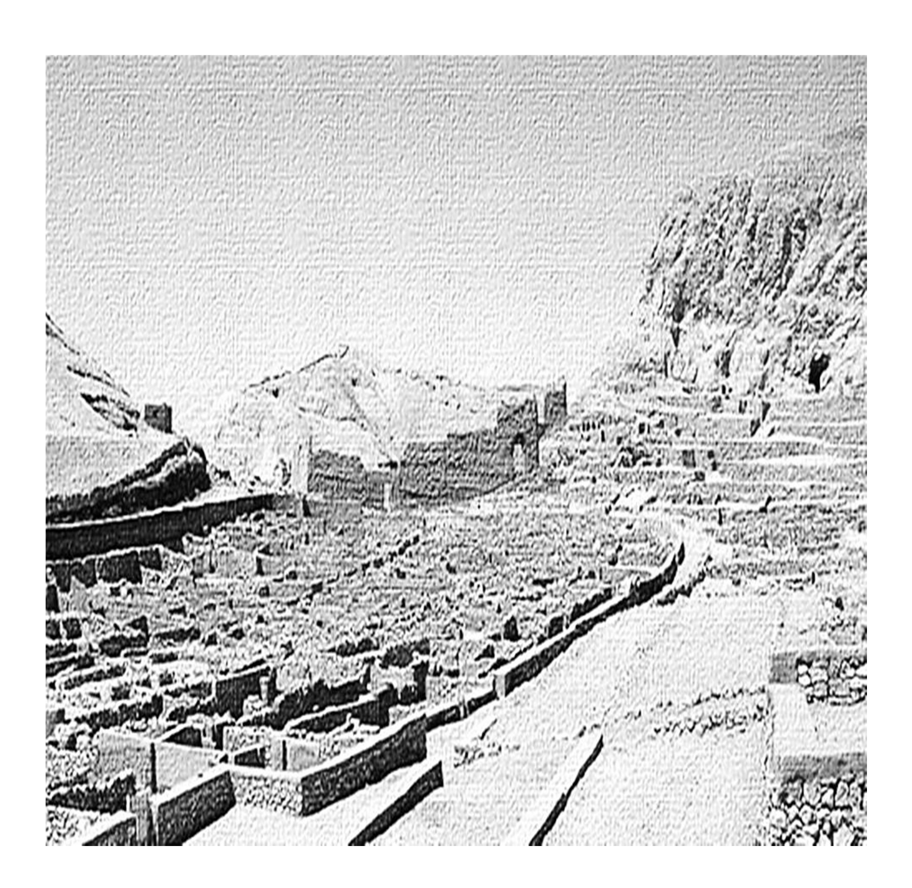
ونصل من البهو إلى غرف النوم والأجزاء الخاصة بالحريم والمطبخ والحمام ودورة المياه.

وكانت هناك حدائق لكثير من المنازل.

مقابر تل العمارنة

نحتت هذه المقابر في الصخور المطلة على المدينة، وكلها غاية في البساطة. وقد وجدت خالية من التوابيت وآثار الدفن، لأن المدينة هجرت بعد الانقلاب الذي أحدثه «توت عنخ آمون» وانتقال العاصمة إلى طيبة مرة أخرى.

وتحدثنا نقوش جدرانها عن حياة أخناتون وحماسته في أداء رسالته الدينية، ونراه خارجاً في عربته وإلى جانبه نفرتيتي زوجه المحبوبة وبناته الصغيرات لتأدية فروض العبادة في معبد المدينة، فيستقبل هناك بالموسيقى والغناء، وأينما توجهت، ترى صورة الأشعة المنبعثة من قرص الشمس والمنتهية بشارة الحياة. وقد خلت تلك المقابر من الطلاسم والسحر الذي كان شائعاً من قبل.



مقابر تل العمارنة

ويلاحظ أن بعض أجزائها لم يتم، وبعض المناظر لا تزال مخططة بالمداد فقط دون أن تنحت في الصخور، وذلك لأن الزمن لم يطل لإتمامها كلها على الوجه الأكمل، بل هجرت المدينة وترك العمل في المقابر لتعمر بعد ذلك مدينة الأقصر.

فن النحت في عصر أخناتون

من أعظم القطع الفنية في هذا العصر رأس الملكة نفرتيتي التي أبدع

الفنان صنعها، حتى أنها تعتبر أحسن قطعة فنية في العالم كله. وقد خلّفت لنا آثار العمارنة كثيراً من بدائع فن النحت، وكلها تنطق بالدقة والجمال والتعبير الصادق عن العاطفة والنبل.

آثار توت عنخ آمون

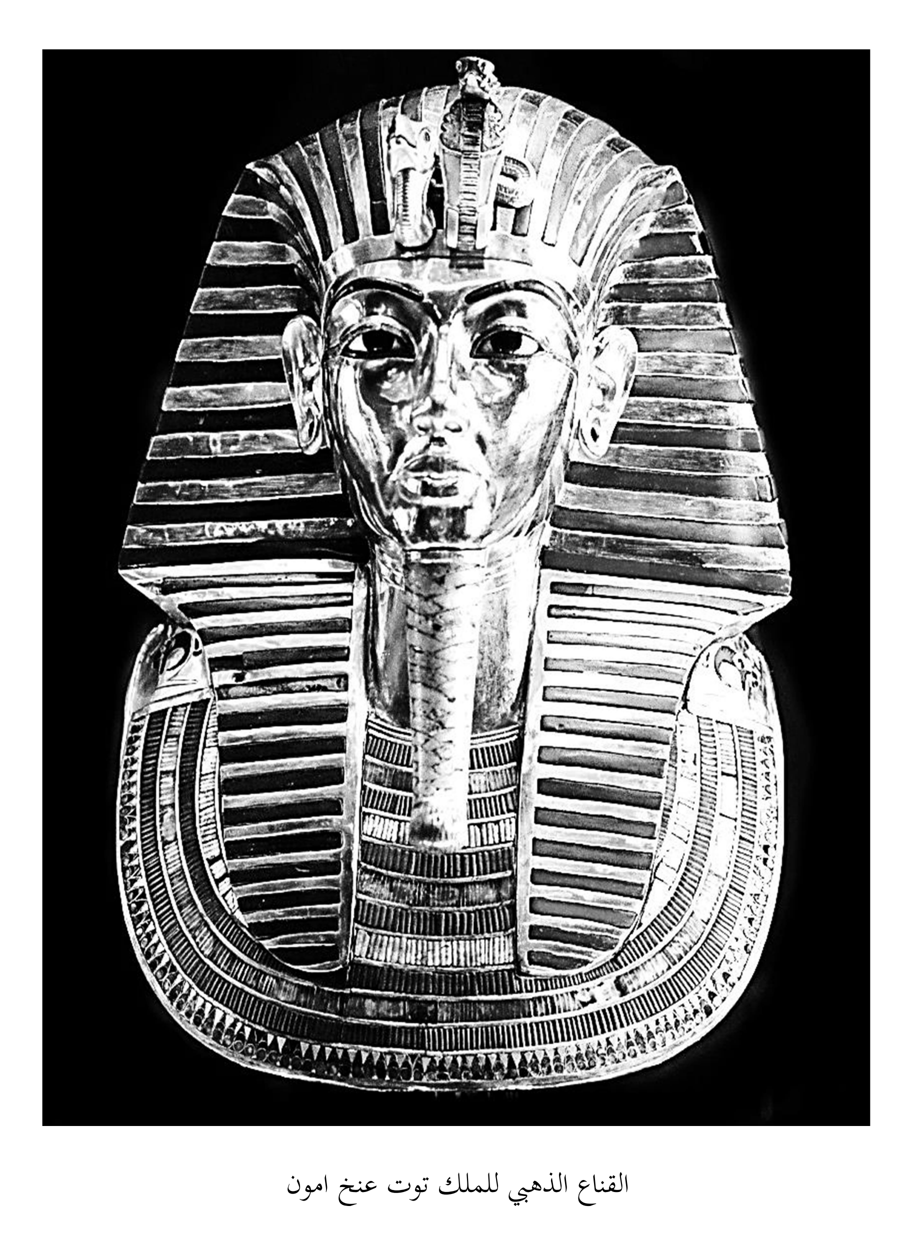
انتقل فن تل العمارنة إلى الأقصر واستمر في تقدمه، وكان من آيات هذا التقدم ما نرى في آثار توت عنخ آمون من جمال وروعة ودقة. وترى هذه الظشار بالمتحف المصري وهي تتألف من مجموعة كبيرة من الأثاث والحلى والتوابيت المصنوعة من الذهب والصناديق المرصعة بالعاج والآبنوس والآتية المصنوعة من الذهب والصناديق المرصعة بالعاج والآبنوس والآنية المصنوعة من حجر المرمر بأشكال نباتية أو حيوانية. وكان على جانبي غرفة الدفن تمثالان.

وقد وجدت بهذه الحجرة أربعة نواويس، أو صناديق كبيرة، كانت تحيط بالتابوت الذي يضم جثمان الملك، وقد غطى رأس المومياء بقناع من الذهب.

ومن أهم هذه الآثار كرسي التتويج الخاص بهذا الملك، وترى على مسند الظهر نقوشاً تمثله مع زوجته في رقة وعذوبة، وقد غمرتهما أشعة الشمس المتدلية من القرص بفيض من الحياة والحب كالمبين في الصورة.



حجرة الدفن بمقبرة الملك الصغير " توت غنخ آمون "



القناع الذهبي للملك توت عنخ امون

الباب الرابع

الحضارة المصرية في عهد البطالمة

الاتصال بين مصر والإغريق (اليونان)

اتصل الإغريق بمصر، منذ كانوا يرحلون في البحار للاشتغال بالتجارة، وقد رحَب بهم بسمانيك في عصر النهضة، حوالي سنة ٦٦٠ ق.م، للأتجار معهم والإفادة من نشاطهم في الصناعة والحرب، وسمح لهم بالإقامة في مدينة بشمال الدلتا تسمى نقراطيس، أو نقراش.

وقد استفاد هؤلاء القوم علماً وفناً أثناء إقامتهم بمصر، وكان كثير منهم يفدون إلى مدينة عيش شمس لطلب العلم في جامعتها.

وكان المنتظر أن تنمو العلاقات الثقافية بينهم وبين المصريين، ولكن الفرس سادوا بلاد الشرق، وزحفقا إلى مصر بجيوش كبيرة، وكانوا أعداء ألداء للإغريق فمنعوا اتصالهم بالمصريين، إلى أن جاء الإسكندر سنة **٢٣٢** ق.م وطردهم من مصر، ثم تبعهم إلى بلادهم فاتحاً، وأنشأ إمبراطورية واسعة امتدت من الشرق إلى الغرب. وقد غرس الإسكندر في البلاد التي نزل بها بذور الحضارة اليونانية، وعندئذ ألتقت الحضارة المصرية بالحضارة اليونانية مرة أخرى.

الأسكندر في مصر

كانت آثار الحضارة المصرية العظيمة لا تزال واضحة عندما جاء الإسكندر إلى مصر ووقف بمدينة منف فأعجبته وأراد أن يتوج بهذه المدينة في معبد الإله بتاح كما كان يفعل الفراعنة من قبل، ثم رحل إلى واحة سيوه، لزيارة معبد آمون، وهناك سمّاه الكهنة ابن الإله، وعاد منها إلى المكان الذيوضع فيه حجر الأساس لمدينة الإسكندرية بالقرب من قريي مصرية تسمى «راقودة».

وقد اتسعت مدينة الإسكندرية بعد ذلك وخُطَّت فيها الشوارع مستقيمة واسعة، وأنشيء بها مرسى للسفن بإقامة جسر يصلها بجزيرة فاروس، وكان طوله ميلا، ونتج عن إقامة هذا الجسر وجود ميناءين، أحدهما شرقي والآخر غربي، وأصبحت الإسكندرية بعد قليل من الزمن زينة الدنيا، ومركزاً هاماً للحضارة اليونانية، ونشطت تجارتها نشاطاً عظيما، وأقيمت بها أفخم الأبنية والمسارح والملاعب.

وأقام الإسكندر بمصر تسعة أشهر، نظَّم في خلالها أحوال البلاد، وجعل عليها حاكماً مصرياً وآخر يونانياً، ثم عاد لمواصلة الحرب ضد الفرس في آسيا، وتربع على عرش إمبراطورية كبيرة.

حكم البطالمة

مات الإسكندر في الثالثة والثلاثين من عمره سنة ٣٢٣ ق. م. واقتسم قواد جيشه ملكه الواسع، فكانت مصر من نصيب بطليموس، وهكذا نشأت دولة البطالمة، التي حكمت البلاد مدة تقرب من ثلاثمائة

عام، وكان لحكم هذه الأسرة أثر هام في الحياة المصرية يتخلص فيما يأتي:

استغلال البلاد

بدأ بطليموس الأول حكمه بالعمل على استقلال البلاد، وقد اهتم بتنمية موارد الثروة، وتقوية الجيش والأسطول لبلوغ هذه الغاية، وبعد فترة قصيرة استقلت مصر وأصبح لها مركز هام في السياسة الدولية، وخضعت لها فلسطين وبرقة، ونشطت تجارتها مع البلاد الشرقية والجزر اليونانية في البحر الأبيض المتوسط.

نشر الثقافة اليونانية

كان من الطبيعي أن يهتم البطالمة بحضارة بلادهم الأصلية، وكانت هذه الحضارة ممتازة في العلم والفلسفة، والفن والآداب العالية، ولم يكن الأمر مقصوراً على دراسة ما خلَّفه اليونان من حضارة راقية، بل كان علماء الإسكندرية يزيدون في ثروتها العلمية والأدبية، فأخذ نورها ينتشر من مصر إلى جميع جرات العالم المعروف في ذلك الزمن، وكان لمكتبة الإسكندرية وجامعتها فضل لا ينسى.

الاحتفاظ بالتقاليد القديمة

على الرغم من قيام هذه الحضارة في مصر، واهتمام البطالمة بها اهتماماً كبيراً، بقيت الحضارة المصرية، محتفظة بروحها وتقاليدها المألوفة منذ آلاف السنين، وسارت هذه الحضارة مع حضارة الحكام جنباً إلى جنب، فلم تتغلب إحداهما على الأخرى، بسبب محافظة المصريين على

القديم، وتمسكهم بماضيهم العظيم وديانتهم ولغتهم الأصلية.

عبادة البطالمة

شجع البطالمة بقاء الشعب المصري على حالته، ليقبل الناس على عبادتهم وطاعتهم، وقد زادوا في تكريم الكهنة لبلوغ هذه الغاية، وأقاموا للآلهة المصرية معابد فخمة في كثير من الجهات، وجعلوا للعجل أبيس أهمية خاصة في العبادة الرسمية، فأنشأوا لتكريمه معبداً بالإسكندرية، وآخر بسقاره، وكانوا يحتفلون بدفنه في مقابر خاصة تسمى «السرابيوم» في كل من هذين البلدين.

التنظيم الإداري للبلاد

لم يغير البطالمة في النظام الإداري المعروف منذ عهد طويل، من تقسيم البلاد إلى مصر العليا ومصر السفلى، وتقسيم كل منهما إلى أقاليم أو مديريات.

إشراف البطالمة على موارد الثروة

كانت الدولة تشرف على جميع النواحي الاقتصادية في البلاد من زراعية وصناعية وتجارية، واهتمت بوضع نظام دقيق لجمع الضرائب التي ثقلت على الناس، فكان كثير منهم يتهرب من دفعها وقد اخترعت النقود في هذا العهد، وأنشيء في البلاد كثير من المصارف (البنوك) التي كان يستتفيد منها أصحاب الأموال والتجار.

تشجيع الإنتاج لمصلحة الحكام

أصلح البطالمة كثيراً من الأراضي الزراعية في الدلتا والفيوم، وظهر أستعمال الساقية والطنبور، فتحسنت بذلك وسائل الري وزاد الإنتاج الزراعي، وأمكن زراعة الكثير من بساتين الكروم والزيتون.

كثرة الثورات

وكان هذا الإصلاح يزيد في ثروة الحكام وأتباعهم من الإغريق المقيمين بمصر، ولكن الفلاحين كانوا يقاسون من شدة الفقر، ويقضون حياتهم في خدمة السادة أصحاب الأرضي الواسعة، ولذا كانت الثورات كثيرة طول هذا العهد.

يقظة الوطنية المصرية

كان قادة الجيش وأصحاب الرتب العالية فيه، بل ومعظم جنوده من اليونانيين، ولكن بتقدم الزمن، وبحكم الظروف المفاجئة، اضطر البطالمة إلى إفساح السبيل أمام المصريين للتقدم إلى صفوفه، والتدرب على فنون القتال واستعمال الأسلحة الحديثة، حتى تألف منهم في النهاية قلب الجيش الذي أرسل بطليموس الرابع للحرب في فلسطين وسورية، وقد تمكن هذا الجيش من سحق الأعداء في رفح سنة ٢١٧ ق.م.

وعاد الجيش إلى الوطن معتزاً بهذا النصر، فكان ذلك من أسباب يقظة الروح القومية وأخذ صوت الضباط الأحرار يدوي في كل مكان، وسرعان ما شب لهيب الثورة التي كادت تقضي على الطغاة وتزلزل

عروشهم لولا تدخل الرومان في الميدان بقوتهم الكبيرة لنصرة الظالمين وسعياً وراء مصالحهم الخاصة.

بطليموس الثاني

لم تكن أحوال البطالمة قد فسدت حينما ولى العرش بطليموس الثاني سنة ٢٨٥ ق.م. فقام بكثير من الإصلاح وخصوصاً إعادة حفر القناة الواصلة بين النيل والبحر الأحمر، وبناء المنارة. والنهوض بمكتبة الإسكندرية ومتحفها، وكان من نتيجة أعمال بطليموس أن نشطت التجارة، ونمت موارد الثروة، فاستطاع إنشاء المباني الكثيرة في الإسكندرية، وتشجيع الفنون والعلوم، كما أنه بنى جزءاً من معبد فيله بأسوان، وبدأ بناء معبد ادفو الذي تم بعد ذلك في سنين طويلة.

منارة الإسكندرية

تحتل قلعة قايتباي الآن، مكان المنارة القديمة، التي كان ارتفاعها ٤٠٠ قدم، وكان نورها يمتد في البحر على بعد ٦٠ كيلو متراً، وهي الأولى من نوعها في تاريخ العالم، وقد ساعد إنشاؤها على مسير السفن ليلا، فازدادت بذلك سرعة وصول البضائع إلى الموانى المختلفة.

مكتبة الإسكندرية

أنشأ هذه المكتبة بطليموس الثاني لدراسة الحضارة اليونانية، وكان المتحف الواقع بجوارها معهداً للأبحاث قريب الشبه بالجامعات في وقتنا الحاضر، وكانت هناك مساكن للأساتذة وقاعات للمحاضرات ومطعم

متسع ومعمل للكيمياء وغرف للتشريح يدرس فيها الطب وعلم النبات والحيوان، وكان هناك مرصد مجهز بالأدوات والآلات الدقيقة.

وقد نمت هذه الجامعة وازدهرت بمرور الزمن، وتوصل العلماء في الإسكندرية إلى كثير من المخترعات والحقائق العلمية الهامة التي لا يزال العالم يستفيد منها إلى وقتنا الحاضر.

ولكن الشعب المصري كان بعيداً عن هذا العلم العزيز، لجهله باللغة اليونانية وفقره، وعدم العناية بأمره، وأخيراً أحرقت المكتبة عندما جاء يوليوس قيصر الروماني إلى مصر في خاتمة عهد البطالمة، واحترقت سفنه فامتد اللهيب منها إلى المكتبة.



معبد ادفو

الباب الخامس

تدهور الحضارة المصرية في العهد الروماني

ساءت أحوال مصر في نهاية عهد البطالمة للأسباب الآتية:

١- كثرة انصراف الملوك إلى اللهو والفجور.

٢- إرهاق الناس بالضرائب والقسوة في جمعها.

٣- انتشار الفوضى لضعف الملوك وكره الشعب لهم، واستعانة بعضهم بقوة روما لحماية ملكه والوصايا على أبنائه، وكان للرومان في ذلك الحين قوة كبيرة يخافها الجميع، وظهر تدخلهم في الشئون المصرية بشكل واضح عندما وقع الخلاف بين كل من بطليموس السادس وأخيه بطليموس السابع، ثم بين كليوباتره وأخيها بطليموس الثاني عشر.

يوليوس قيصر في مصر

كان يوليوس قيصر قائداً رومانياً ماهراً، وقد أسس بفضل انتصاراته في أنحاء أوربا وبلاد اليونان وسورية إمبراطورية لروما، ولما حدث الخلاف على العرش في مصر وجد فرصة للتدخل في شئونها، لتصبح جزءاً من هذه

الإمبراطورية، وقد حضر إلى الأسكندرية متظاهراً بالرغبة في تسوية النزاع بين كليوباتره وأخيها، وجاءته كليوباتره باكية مستنجدة فرقّ لها قلبه، وأرسل في طلب أخيها الصغير للتوفيق بينهما، ولكن الصبي أبى لقاء أخته على هذه الحال، ورفض تدخل قيصر في الأمر ثم خرج من القصر ينادي بأعلى صوته بين الجماهير، يا للخيانة!! وقد تجمع الناس من حوله مشفقين به، ثم اندفعوا إلى القصر مطالبين بالخلاص من هذا العار.

ولم يجد قيصر وسيلة ينجو بها من غضب الشعب الثائر إلا إحراق مدينة الأسكندرية، فأمر بإشعال النار في بعض سفنه التي امتد اللهب منها إلى الأرصفة، ثم انتشر في أنحاء المدينة واحترقت كثير من الأبنية التي كان من بينها مكتبة الأسكندرية. وأخيراً تدخل الجيش الروماني وقضى على الثوار بسرعة، وأصبحت مصر من ذلك الوقت ولاية رومانية.

وبعد قليل غادر قيصر الأسكندرية في رحلة نيلية إلى أقاصي الصعيد، وكانت كليوباتره تصحبه في هذه الرحلة التي زار في خلالها كثيراً من المعابد المصرية ومن بينها معبد دندره الذي دوّن عليه تاريخ هذه الزيارة.



معبد دندرة

ولما قتل قيصر بعد عودته إلى روما وهزمت كليوباتره والقائد الروماني أنطونيوس الذي تزوجته بعد قيصر، أصبحت مصر تابعة لروما ابتداء من سنة ٣٠ ق.م حتى سنة ٦٤١ م.

حكم الرومان لمصر

عندما احتل الرومان مصر حكموها بيد من حديد، وأصبح الحاكم الروماني مسيطراً على الجيش وجميع الشئون المالية والقضائية، وساد البلاد جو من الرعب والأرهاب، وابتلى الناس بشيء من الجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات.

وحينما فقدت البلاد استقلالها في هذا العهد وولى المستعمر أمرها

أخذت حضارتها الثديمة تنهار وتضعف شيئاً فشيئاً. ويظهر هذا الانهيار فيما يأتي:

أهمال تعليم الشعب

شجع الرومان إنشاء المنتديات التي تهتم بالألعاب الرياضية والآداب اليونانية، وكان لا يدخلها إلا أبناء الطبقة الأرستقراطية الغنية، أما الشعب المصري فكان محروماً من الثروة والعلم معاً.

إنحلال اللغة المصرية

حلت حروف اللغة اليونانية في هذا العهد محل الكتابة المصرية القديمة واستعملت تلك الحروف في كتابة نصوص اللغة القبطية وأخذ المصريون ينسون كل شيء عن كتابتهم القديمة.

القضاء على التقاليد الريفية

أصبح كبير الكهان في ذلك العهد من الرومان، وفرض على الكهنة المصريين إطالة أمره، وقد حرمت المعابد من الأراضي التابعة لها، وقضى بذلك على ما بقي للحضارة المصرية من التقاليد الدينية.

التفرقة بين طبقات الشعب

فرّق الرومان بين طبقات المجتمع المصري الذي تألف في عهدهم من الإغريق واليهود والفلاحين المصريين، وكانوا يشجعون الجميع على أن يكره بعضهم البعض الآخر ليقع الخلاف بينهم، وبذا كان مبدأ الرومان في الحكم (فرق تسد).

القسوة في جمع الضرائب

لم يكتف الرومان بالقضاء على مظاهر الوطنية المصرية واللغة القومية والتقاليد الدينية، وحرمان المصريين من دخول الجيش والانتظام في صفوفه، بل إنهم فرضوا على الفلاحين والمصريين جميعاً كثيراً من أنواع الضرائب التي كانت تجبى منهم بقسوة زائدة، وكانت الغلال ترسل إلى روما ليتمتع بها الرومان في حين يحرم منها الشعب البائس الذي يشقى في زراعتها.

وقد قيل إن مصر كانت في عهدهم بقرة يحلب لبنها حتى يجف، وتمتص دماؤها حتى تعجز عن المشي، ثم تذبح ليؤكل لحمها من غير رحمة.

وتعددت أنواع الضرائب فكان منها ما يأتي:

أ- ضريبة الرءوس على كل مصري من غير تمييز بين فقير وغني.

ب- خراج الأراضي المزروعة وغلاتها، فكان المحصول يؤخذ غصباً لروما.

جـ- وكان الجنود الرومان يقومون بجمع الضرائب فيأخذون لأنفسهم الكثير منها عن طريق السلب والنهب.

وإذا عجزت بعض الناس عن دفع الضريبة كانت تلتزم بها القرية التي يسكنها أو القرى المجاورة لها.

وكثيراً ما كان الناس يضطرون إلى ترك أراضيهم وأهليهم فراراً من سداد هذه الضرائب الثقيلة فيفرون إلى الصحارى أو إلى البلاد الخارجية.

ظهور المسيحية واضطهاد الرومان لرجالها

أخذت البلاد تنتقل من شيىء إلى أسوأ في طول العصر الروماني حتى ظهرت المسيحية. فكان الرومان يعذبون رجالها وأتباعها، وكان يذبحون كثيراً منهم.

وبقى المسيحيون في مصر يقاسون مرارة الظلم والتشريد طوال هذا العهد، ولما أصبحت المسيحية الدين الرسمي للدولة الرومانية في عهد الإمبراطور قسطنطين، اخترع الرومان مذهباً ملكانياً (أي ملكياً) يختلف عن مذهب المسيحين المصريين. وقد رفض المصريون بإباء وشمم الانقياد لرغبة الرومان في فرض هذا المذهب عليهم واشتد النزاع بين الطائفتين، واضطهد المسيحيون المصؤيون مرة أخرى بما هو أشد من اضطهادهم السابق.

وكان هذا الاضطهاد سبباً في ترحيب المصريين بطرد الرومان على يد العرب المسلمين، وعندئذ اطمأنت النفوس إلى عدالة الحكام وإباحة حرية العبادة، وحلَّ الرضا والأمن بدل الجوع والفزع، وبدأت مصر عهداً جديداً من الإيمان والقوة والحضارة.

ما خلفه الرومان

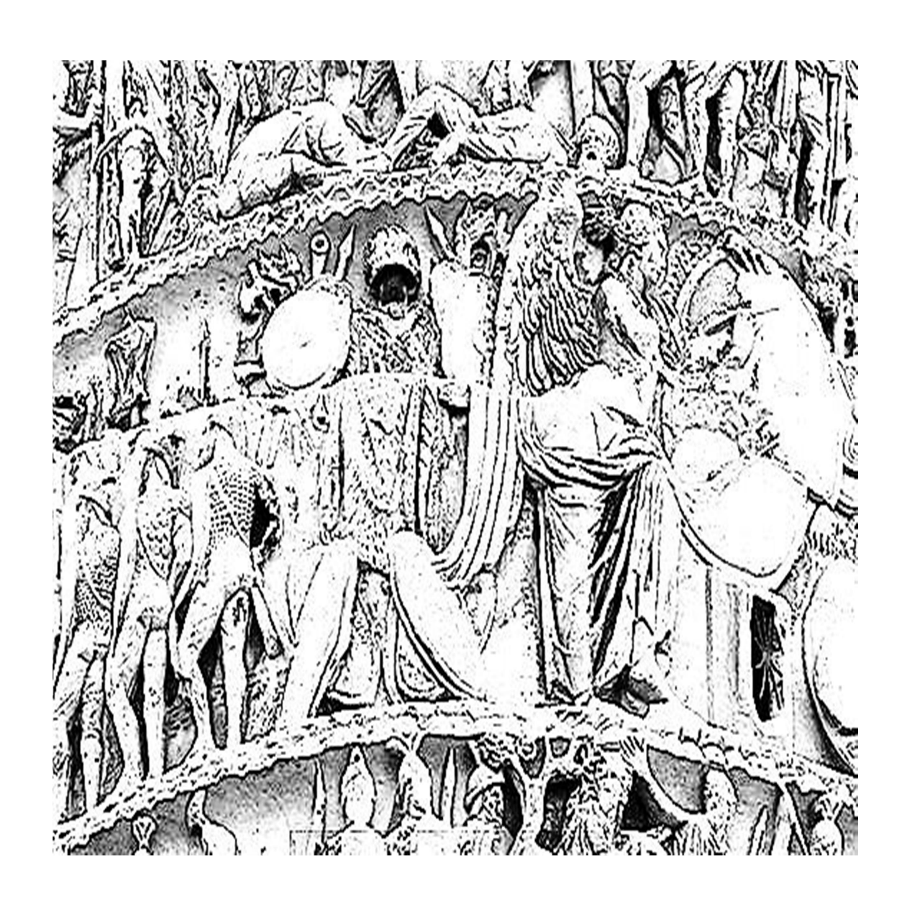
وكيفما كان الأمر فقد كان للرومان حضارة خاصة، فيها علم وفن، وآداب وقوانين ونظم، وخلَّفوا في مصر كثيراً من الآثار الدالة على عنايتهم بالطرق اللازمة للتجارة مثل طريق وادي حمامات بين قفط والقصير، وإعادة حفر الخليج الواقع بين النيل والبحر الأحمر، وكان للحصون شأن

هام في عهدهم، وأخصها بالذكر حصن بابليون، وقد بقي من آثارهم في الإسكندرية ما يسمى «عمود السواري» وهو يرجع إلى عهد دقلديانوس؛ أو عصر الشهداء الذي اضطهد فيه المسيحيون بمصر.

وترى في معبد فيله أو قصر أنس الوجود بأسوان، بناء جميلا من عهد الإمبراطور تراجان.

وهناك آثار أخرى كثير من العصر الروماني يضمها متحف الاسكندرية ومتحف القاهرة، وكلها تدل تقدم صناعة الورق والزجاج والنسيج في هذا العهد، وكان للرومان ذوق خاص في عمل التماثيل، وشكل الأعمدة ذات الرءوس النباتية، وإقامة المعابد بأوضاع هندسية جميلة.

وقد تأثرت فنون الرومان وآدابهم بما ابتكره الإغريق من قبل، ولا شك في أنهم أفادوا العالم بما خلّفوه من هذه الآداب والفنون، وكان لهم الفضل في وضع القوانين التي لا تزال تدرس في الجامعات إلى وقتنا هذا. والحق أنهم فعلوا للحضارة الشيء الكثير، ولكنهم لم يصلوا إلى قلوب الناس وحبهم لاعتدائهم على حريات الشعوب واندفاعهم وراء الاستعمار البغيض في عنف شديد.



عمود ماركس أرليوس.. نموذج لفن العمارة

الفهرس